

رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

٢٠

رواية

معسكر الأرامل

تأليف الروائية الأفغانية

مرال معروف

ترجمة

د. ماجدة صلاح مخلوف

مكتبة العبيكان

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية





رواية

معسكر الأرامل

تأليف الروائية الأفغانية

مرال معروف

ترجمة الدكتورة

ماجدة صلاح مخلوف

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
معروف، مرال
رواية معسكر الأرامل
مرال معروف؛ ماجدة صلاح مخلوف - الرياض، ١٤٢٣هـ
٢٠٩ص ، ١٤×٢١سم
ردمك: ٩ - ٢٤٧ - ٤٠ - ٩٩٦٠
١ـ القصص القصيرة العربية
أ ـ مخلوف، ماجدة صلاح (مترجم)   ب ـ العنوان
ديوي ٨١٣,٠١   ١٤٢٣/٥٤٥٤

ردمك: ٩ - ٢٤٧ - ٤٠ - ٩٩٦٠   رقم الإيداع: ١٤٢٣/٥٤٥٤

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الناشر
مكتبة العبيكان
تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض: ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

نشر هذا الكتاب بالتعاون
مع مركز بحوث العالم التركي في القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

هذا هو الإصدار العشرون لمكتب البلاد العربية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في سلسلتها العامة، وهو الكتاب الأول في الأدب الإسلامي المترجم إلى العربية من آداب الشعوب الإسلامية، وستتبعه بإذن الله إصدارات أخرى، وذلك سعياً لإثبات عالمية الأدب الإسلامي، وأخذاً بما جاء في الفقرة السادسة من أهداف الرابطة التي تنص على: «جمع الأعمال الأدبية الإسلامية المتميزة ونقلها إلى لغات الشعوب الإسلامية وغيرها من اللغات العالمية» وتعزيزاً لما جاء في الفقرة السابقة من مبادئ الرابطة التي تنص على أن: «الأدب الإسلامي هو أدب الشعوب الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها، وخصائصه هي الخصائص الفنية المشتركة بين آداب الشعوب الإسلامية كلها».

ورواية (معسكر الأرامل) للكاتبة الأفغانية مرال معروف تمثل صورة من معاناة الشعب الأفغاني المسلم وجهاده في فترة الاحتلال الشيوعي السوفييتي لأفغانستان في عقد الثمانينات. وهي فترة الجهاد الإسلامي الخالص قبل أن تتدخل الأهواء والعصبيات العرقية والمنافع الأنانية لتشعل جذوة الصراع

على الحكم، ولتفسد تلك الصفحة الناصعة، وتفتح الطريق للحرب بين أشقاء الأمس، وتعمل على الإضرار بالعباد وتخريب البلاد.

ونحن نأمل أن تكون هذه الرواية الخطوة الأولى الناجحة في هذه الإصدارات، والله ولي التوفيق.

د. عبدالقدوس أبوصالح

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية

معسكر الأرامل

في الساعات الأولى من صباح أحد أيام الجمعة، خَرَجْتُ أنا وأمي وزوجة خالي الكبير، وأخي عبد الرزاق، لنركب السيارات المتجهة إلى معسكر (ناصر باغ)[1].

في البداية، ركبنا الحافلات إلى مستشفى (خَيبَر) في (هاشناكاري). أَخَذْنا أنا وأمي وزوجة خالي أماكننا في القسم المخصص للنساء في الحافلة. تحرَّكَتْ الحافلة متأخرة عن موعدها قليلاً، وذلك في انتظار أن تمتلئ بالركاب. وما إن تحرَّكَتْ؛ حتى ظهر عليَّ الانفعال والفضول الذي كان يعتمِلُ بداخلي. لم أستطع إخماد هذا الشعور في نفسي، أو التخلص منه، رغم ما بَذَلْتُهُ من محاولات... تُرى؛ هل سيسمحون لنا بدخول معسكر الأرامل؟

كنت أَتُوقُ حقاً لرؤية هذا المعسكر الذي قرَّرْتُ الذهاب إليه، بعد أن سَمِعْتُ الكثير عنه، فمعسكر الأرامل مختلف عن كل المعسكرات الأخرى؛ حتى اسمه مختلف وغريب. حدَّثني عنه ذات يوم أحد مهاجرينا، فقال:

(١) في باكستان.

- هناك في معسكر الأرامل، لا يعيش إلاّ النساء والفتيات، ومعهن الأولاد الذكور الذين لم يتجاوز عمرهم الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. كما يعيش فيه أيضاً النساء والأطفال الذين فقدوا أهليهم. ومع هؤلاء تعيش أمهات وزوجات الشهداء، لا حَول لهن ولا قوَّة، ولا ملجأ لهن سوى الله العلي العظيم. كذلك أولئك اللاتي لم يبق لهن أحد في الدنيا.

وتُقَدِّم إحدى الجماعات الإسلامية في (ناصر باغ) المعونات إلى كل أولئك الموجودات في معسكر الأرامل - منذ عام ١٩٨١م -، وذلك قبل قيام اتحاد الجماعات الإسلامية الأفغانية. كما أن دولة باكستان تُولِيهم - بدوره - اهتماماً خاصاً. تعمل في معسكر الأرامل، طبيبات ومساعدات ذوات خبرة؛ ممن ينتمين إلى شعبة النساء في الجماعات الإسلامية في باكستان. وهؤلاء من اللاتي يمكن أن يُطْلَق عليهن اسم الشُرطة. ولا يمكن لأي رجل - مهما كان - أن يَدْخُل معسكر الأرامل؛ حتى ولو كان من الأقارب المقربين لأي أرملة من أرامل المعسكر. وإذا كانت المقابلة مهمة، فيمكن مقابلة الأرامل في الخيمة الواسعة المنصوبة على باب المعسكر. وهي خيمة مُعَدَّة لاستقبال الضيوف لمدة محدودة؛ وهي ثلاث أو أربع ساعات في اليوم.

كان الطريقُ طويلاً... طويلاً.. ولم أكن قد رأيتُ من قبل معسكرات سوى معسكر (ناصر باغ)، وهو معسكر من عدة معسكرات موجودة في أنحاء (بيشاور). كان لنا أقارب في كل هذه المعسكرات، لكن معسكر الأرامل بالذات، لم يكن لنا فيه أحد.

كنتُ مشغولة طوال الطريق؛ أُفكّر... ، تُرى ماذا لو منعونا من دخول المعسكر؟!... كنتُ أقولُ لنفسي هذا، وأنا أتلَفَّتُ حولي وأداوم التفكير. ذات يوم سألْتُ أخي عبد الغفّار قائلة:

- ألا يمكن أن تأخذني يا عبد الغفار إلى معسكر الأرامل؟ فإني أريد أن أكتب قصة الهجرة إليه.

فقال بدهشة:

- أمعكسر الأرامل تقولين؟!. أنا لا أقول إنهم يمنعون الرجل فقط من الدخول؛ وإنما يمنعون دخول النساء الغريبات أيضاً إلى المعسكر. لكني بالتأكيد مستعدٌّ للذهاب معكِ إلى أي معسكر آخر تذهبين إليه.

أصابني الضيق حقّا، ذلك لأنَي أتوقُ إلى رؤيتهن عن قرب. رؤية أولئك المسكينات اللاتي يعشن في معسكر الأرامل. وكانت تَعْتَمِل في نفسي تساؤلات كثيرة أطرحها على كل من

حولي، تدور كلها حول معسكر الأرامل. وبالضرورة، كانت أمي تُدْرِك رغبتي في زيارة هذا المعسكر؛ ألم أقل إنني كنتُ أتوق، وبدرجة كبيرة، إلى أن أذهب إلى هناك، وألتقي بمن يَعِشْن فيه. كنتُ مشتاقة إلى التعرف على أمهات شهدائنا وزوجاتهم العفيفات، وأطفالهن الأبرياء المساكين، الأيتام الذين يفتقدون عوائلهم... كيف هاجروا؟... ولماذا تركوا قُراهم؟... وكيف دَمَّرَت القنابل مُدنَهم؟... أو بمعنى أصَح؛ كنتُ أرغب في معرفة كل شيءٍ عنهم، كَبُرَ هذا الشيء أم صَغُر.

تُرى؛ كيف استشهد أقاربهن؟... هؤلاء الذين أحبوهن حبهن لأرواحهن - بل وأكثر من أرواحهن - وكيف لَقِيَ الأخ، والأخت، والزوج، والطفل، والعم، والأم - كيف لقوا حتفهم شهداء في سبيل الله؟. وكيف ظُلِمَ هؤلاء؟. وكيف عُذِّبوا؟. ثم كيف استُشهدوا؟...

من بين ما سمعْتُ عن هذا المعسكر، أن كثيراً من الأطفال ممن بلغوا الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، يذهبون إلى الجبهة. وعندما يرجعون لرؤية أمهاتهم، وأخواتهم اللاتي يعشن في معسكر الأرامل، يُجبرون على الإقامة في معسكر آخر منفصل عنهن. لكن يُتاح لهم أن يلتقوا بأمهاتهم لمدة

تتراوح بين ثلاث وأربع ساعات في اليوم الواحد. كما أن بعض أولاد تلك النساء ممن بلغوا الخامسة عشرة، يتركون المعسكر، ليقيموا في معسكر آخر، وتقول أمهاتهم (لقد بلغ الأولاد مرحلة القدرة على رعايتنا).

* * *

ذات يوم كانت أمي في زيارة أسرة من أُسَرِ مُجاهدينا الأفغان، ممن هاجروا حديثاً من أفغانستان إلى باكستان. وتصادف أن كان في زيارة هذه الأسرة أختٌ صيدلانية مهاجرة، وتعرّفَت أمي عليها هناك. وكانت هذه الأخت الصيدلانية، تمتاز بدأبها في العمل. فهي تنتقل من معسكر إلى آخر، في كل وقت؛ ليلاً كان أو نهاراً، صيفاً أو شتاءً، تقوم بخدمة مُهاجرينا المرضى والجرحى.

أثناء هذه الزيارة، دار الحديث بين أمي وبين الأخت الصيدلانية، حول معسكر الأرامل. فقالت الصيدلانية لأمي:

- إن المسؤولين عن معسكر الأرامل، لا يعترضون على دخول النساء، إلاّ إذا أثَرْنَ شكوكهم. وإذا كانت أختنا (مَرَال) ترغب في دخول هذا المعسكر؛ فإنني أكتب رسالة إلى إحدى أخواتنا الطبيبات هناك لتساعدها، حتى لا تواجه صعوبة ما. وإن شاء الله، ستَلْقى منها العون اللازم.

فشَكَرَتْها أمي وأخَذَت منها الرسالة. وغمرتْني الفرحة حقاً عندما سلَّمَتْني أمي هذه الرسالة. كانت زوجَة خالي الكبير قد هاجَرَتْ حديثاً من أفغانستان، فأبْدَت رغبتها في الذهاب معنا، بقولها:

- كم أنا مشتاقة لرؤية شعبي.

عقب هذا قررنا الذهاب إلى معسكر الأرامل. وعقدنا العزم على ذلك يوم الجمعة التالي بإذن الله تعالى.

* * *

بَدَأَت الحافلة تخلو من رُكَّابها كلما اقتَرَبَتْ من الموقف الرئيسي للحافلات؛ وهو محطتها الأخيرة. ونظرتُ إلى مفكّرتي بما فيها من رسالة الصيدلانية إلى السيدة الطبيبة (أَسْفَر)، وأنا أُمَنّي نفسي، بأنهم إن شاء الله سيسمحون بدخولنا.

وقَفَت الحافلة أمام مستشفى (خَيبَر)، وهي محطتها الأخيرة. نزلنا من الحافلة، ووقفنا فوق الرصيف ننتظر العربات التي ستحملنا إلى (ناصر باغ). كان أطفال المهاجرين يشتغلون باعة متجوّلين وقد وقفوا على الرصيف، ينادون بأعلى أصواتهم على الفاكهة التي جلبوها من أماكن بعيدة،

مثل؛ البرتقال والموز والبطيخ والكمثرى والبرقوق. وكانت الشمس تُلهب الجو بحرارتها، ونحن لا نكاد نلتقط أنفاسنا من وراء النقاب. ثم انتقلنا إلى الجانب الأيمن من الطريق، لنستمتع بظلال الأشجار أثناء انتظارنا.

كان الزحام قد بلغ من الشدّة مبلَغه. كل المهاجرين تقريباً أفغان. كذلك كانت الحافلة المتجهة إلى معسكر (كاشاكاري)، تسلك هذا الطريق. كان الماء أكثر شيءٍ يباع في هذه المحطة؛ فالناس من شدّة الحرّ، يكاد يغشى عليهم. لهذا؛ كانوا يتزاحمون حول باعة الماء المنتشرين في كل مكان... السيارات نصف النقل، والعربات، والشاحنات الكبيرة والصغيرة، تمر أمامنا بسرعة، فتثير التراب والضوضاء وراءها.

* * *

كدتُ أفقد صبري من شدّة الحر والانتظار، إذ بأخي عبد الرزاق، يُشير إلينا - وهو جالس في عربة نصف نقل - بأن نركب في العربة، فركبنا. جلسْنَا بجوار السيدات في مؤخرة العربة. وفي دقائق معدودة، كانت العربة قد امتلأت بالركاب، وما أن تَحَرَّكَت، حتى بدأنا نتلفت فيما حولنا، ونتطلع إلى الطريق الذي خلّفَته العربة وراءها. النهر يتدفق

عن يمين الطريق، والأشجار الخضراء والحقول، تمتد على مرمى البصر عن يساره.

سارت العربة بنا مسافة طويلة في هذا الطريق، ثم وصَلَت إلى مكان دمّره فيضان النهر، فاجتازته بصعوبة. وابتَعَدَت العربة بعد ذلك عن طريق النهر، وسَلَكَت طريقاً آخر وسط الصحراء الشاسعة، المترامية الأطراف. بعد ذلك، لاحت أمامنا الخيام المتقدمة من معسكر (ناصر باغ).

* * *

كنا نتطلع حولنا بعيون دامعة، والألم والقهر يعتصرنا، أجِدُني عاجزة عن وصف حقيقة ما رأيته من النافذة الخلفية للعربة التي نركبها، الأطفال المهاجرون يحملون أباريق الماء في أيديهم، ويركضون وراء العربة. وأهلنا الذين يحملون فوق رؤوسهم علب الزيت الفارغة، وقد ملؤوها من ماء النهر.

كل الخيام متشابهة، لا تختلف عن بعضها بعضاً في شيء خيام... خيام لا نهاية لها... وبيوت متواضعة مبنية من الطين، كلها تتكون من غرفة واحدة... وأطفال مثل الزهور الأفغانية، لا يعرفون شيئاً عن أي شيء. أقدامهم حافية، وملابسهم ووجوههم مُلَطَّخة بالطين.

* * *

كانت العربة تشق طريقها بين الخيام بصعوبة وبطء. عشرات الآلاف من الخيام. خيام لا تُعد ولا تحصى... خيام لا أوَّل لها ولا آخر. ثم توقّفت العربة، ونادى علينا أخي عبد الرزاق لكي نغادرها، فنزلنا منها.

مشينا وراء عبد الرزاق، إلى أن وصلنا إلى مجموعة من المجاهدين، كانوا يجلسون مُطرقين برؤوسهم، أمام إحدى الخيام. فألقى عليهم أخي السلام، ثم سألهم عن مكان معسكر الأرامل. وصَفَ لنا واحد أو اثنان منهم مكان المعسكر، وقالا: إنكم ستصلون إليه بصعوبة. ثم تفضلا مشكورين بمرافقتنا لتوصيلنا إلى مكان المعسكر.

سار عبد الرزاق أمامنا، ومعه اثنان من المجاهدين، ونحن من ورائهم ببضع خطوات. كنا في حالة إعياءٍ من شدّة الحر. وأثناء مرورنا أمام الخيام، كنا نَرُد التحية على نساء وطننا المهاجرات، اللاتي كن يرحّبن بنا وهن جالسات أمام الخيام.

كان الحر شديداً... وقاهراً. وبينما الرجال يسرعون الخطا أمامنا؛ تأخرنا نحن النساء وراءهم، فقد كنا نتبادل كلمات خاطفة مع السيدات المهاجرات اللاتي يدعوننا إلى خيامهن. وغاب عبد الرزاق والرجلان عن نظرنا. فحثثنا

الخطى لنلحق بهم. وأخَذْنا نسأل عن الطريق المؤدي إلى معسكر الأرامل.

مشينا على مقرُبة من مجموعة نساء، حوالي عشرين امرأة، كُنَّ في انتظار دورهن عند بئر ماء، بينما انتَحَت بعضهن جانباً في مجموعات صغيرة مكونة من ثلاث أو خمس سيدات، أخذن يتجاذبن أطراف الحديث. كن جميعاً يُرَحِّبن بنا مُرَدِّدات: أهلاً وسهلاً بِكُن.

قطعنا جزءاً من الطريق، ثم رَغِبَت أمي أن تقف قليلاً؛ فوقفنا. كانت أمي أثناء الطريق ترد على تحية النساء في كلا الجانبين، وتهز رأسها بالتحية لهن، والألم يعتصرها. وغصَّة ألم تملأ حلقها، فتأوَّهَت رغماً عنها.

انفضت النساء عن البئر، واحدة تلو الأخرى، وبدأن في الالتفاف حول أمي. لم تستطع أمي أن تتمالك نفسها، فأجهشت بالبكاء، وشاركتها كل الموجودات البكاء... نعم... كلهن شاركنها البكاء. كنا كلنا أبناء أفغانستان... نبكي كلنا معاً. كان من بين النساء، امرأة طاعنة في السن، تجلس على الأرض، وقد احتوت بين ذراعيها طفلاً في الخامسة من عمره، تضمه إلى صدرها، وتبكي في حزن وألم دفينين وتردد:

- آه... آه يـا بـلادي، آه... وألـف آه. الـشـوق إلـيـك لا ينتهي، والغربة والفراق أيضاً لا ينتهيان. آه يا رفيقات بلادي الحبيبات، آه لو تطاوعنا مآقينا الآن، لعل دمع عيوننا يطرد الروس من بلادنا ويبعدهم عنا... ربما يُنسينا دمع عيوننا ما نحن فيه من ألم.

* * *

أرملة الشهيد عماد الدين

كانت سيدة في مقتبل العمر، تنتحي جانباً، وتحاول أن تجفف بطرف طرحتها دموع عينيها التي تسيل فوق وجنتيها. وبهذه العيون الدامعة، وبكلمات يملؤها الشوق، تتوجه بالسؤال إلى أمي:

- من أين أَنْتُنَّ يا بنات بلادي؟

قالت أمي:

- من (لاغِمان).

فتقول السيدة وهي تبكي:

- وأنا أيضاً من (لاغِمان). أنا زوجة الشهيد عماد الدين. ربما تكونين قد سمعت باسمه من قبل - ثم تستطرد وهي تشير إلى ابنها ذي عشر السنوات، الذي ينظر إلينا بعينين حائرتين - وهذا ابني صلاح الدين، إنه أكبر أبنائي. تقول هذا وهي تحاول جاهدة أن تسيطر على نحيبها، وكأنها وجدت من يستمع إلى آلامها. كانت تحكي كل ما يجول بخاطرها. وكانت هي والمرأة العجوز تحكيان وهما تجففان دموعهما بطرف طرحتيهما، ثم واصلت السيدة حديثها قائلة:

- يسألني - ابني هذا - كل يوم عن أبيه، ولماذا لا يأتي عندنا، فأجيبه وبقية إخوته بقولي:

- الآن أبوكم لا يستطيع زيارتنا، لأنه في الجبهة. إنه لا يستطيع المجيء إلى هنا. وإذا افترضنا مجيئه، فمن إذن سيقاتل الروس في الجبهة!!. لكن عندما تتحرر بلادنا - إن شاء الله - سنعود نحن إلى أفغانستان، فيُعقِّبُ الأولاد على هذا بسؤالهم:

- لكن يا أمنا، آباء أصدقائنا أيضاً في الجبهة مثل أبينا، فلماذا إذن يأتي آباؤهم دائماً لرؤيتهم؟. إنهم يأتون ثم يرجعون إلى الجبهة ثانية.

فأجيبهم:

- إن والدكم قائد، ومن الصعب على القادة ترك الجبهة، لأن كل شيءٍ هناك بأيديهم.

أقول لهم هذا، فيقتنعون.

وهكذا كنت أتحايل على تساؤلاتهم هذه، وتمضي بنا الأيام. لكن حدث ذات يوم أن دخل ابني صلاح الدين هذا خيمتنا وهو يبكي فسألته:

- لِمَ البكاء يا ولدي؟.

قال: لا شيء يا أمي.

ثم انزوى في ناحية واستمر في بكائه. وبالرغم من كل أسئلتي، لم يُجبني. فتوقفت عن الإلحاح عليه، وتصوّرتُ أنه تشاجر مع بعض الأولاد في الخارج، لذا تركته وشأنه. وفي المساء، أخلَد إخوته إلى النوم، وآوى هو أيضاً إلى فراشه وسحب الغطاء فوق رأسه، وسمعت نحيبه تحت الغطاء، ففهمت أنه ما زال يبكي، ولم أستطع أن أفهم سبب بكائه، فرفعت الغطاء عن رأسه وسألتُه باهتمام:

- تكلّم يا صغيري... كلمني يا طفلي الرقيق، لماذا البكاء؟ أتشاجرتَ؟؟.

فألقى بالغطاء وهو يبكي، وقال:

- صارحيني يا أمي... أحقاً مات أبي؟!

لحظتها شعرت كأن الدنيا قد تهدمت فوق رأسي. فجلستُ إلى جواره حتى لا يستغرق في همومه. وبدأتُ أنظر إليه والحيرة تملؤني، ترى... كيف عرف بالأمر؟... نظرتُ إليه فإذا هو في انتظار إجابة مني على سؤاله. وتملَّكَتْهُ الدهشة أمام نظراتي الحائرة، ورأى الأمر وكأني أتلقى هذا الخبر لأوّل مرة. وسألته وأنا أستجمع شتات نفسي:

- لا... إنه لم يمت يا ولدي... من قال لك هذه الأكذوبة الكبيرة؟!

فوضع رأسه فوق ركبتيه، وقال وهو مستمر في بكائه:

- لا يا أمي... ، أنت لا تعلمين شيئاً. لقد مات أبي. هذا ما عرفته من الأطفال. كنت اليوم ألعب معهم لعبة الحرب في الجبهة. وقلت إنني سأقوم بدور القائد. فرفض بعض الأطفال، وقالوا لن أقوم أنا هذه المرة بدور المجاهد الذي يستشهد في الجبهة. فقلت لهم إن والدي قائد، ولذا سأقوم أنا أيضاً بدور القائد. فقال عبد الأحد.

- لقد استشهد والدك منذ فترة طويلة، وأنت ما زلت لا تعلم بهذا.

فقلت لهم:

- إنكم تكذبون.

وأخذت أتشاجر مع عبد الأحد. فقال لي:

- إذا كنت لا تصدّق، فتعال عندنا في خيمتنا، فقد أحضر والدي مجلة فيها صور الشهداء. لقد رأيت صورة والدك فيها. وعندما أطْلَعَ والدي أمي على الصورة، بكت أمي. هيا، تعال لأُريك المجلة، فذهبتُ معه.

قال ولدي صلاح الدين هذه العبارة، ثم سكت عن الكلام. كان يخشى أن يقول ما رآه، فسألته وأنا مترددة:

- هل رأيت الصورة؟ هل رأيت صورة والدك في المجلة؟.

فرفع رأسه وقال:

- لا تحزني يا أمي. أعلمُ أني فاجأتُكِ بالخبر، نعم رأيتُها. الصورة الموجودة في المجلة، هي نفس صورته الموجودة عندنا، وقد رأيتها. وعندما رأيتها وبدأت في البكاء، دَخَلَت علينا أم عبد الأحد، واستفْسَرَت عن الأمر، فأدركته وأخذت تضرب عبد الأحد، ثم ضمتني إلى صدرها وقالت:

- لا تبكِ يا صلاح الدين، فابني يكذب. احذر أن تصدق هذا الخبيث. إنه يغار منك. فوالدك قائد، وهذه المجلة تنشر صور القادة.

ثم استطردت السيدة صغيرة السن في حكايتها قائلة:

- قال لي ابني، إن أم عبد الأحد لا تعرف القراءة. لكنه قرأ المكتوب في المجلة أسفل الصورة، مكتوب (الشهيد القائد عماد الدين). قال ابني هذا، ثم سكت.. عندئذ لم أستطع أن أخفي الأمر عنه.. فقلت له:

- نعم، لقد استشهد والدك. استشهد في السنة الماضية يا ولدي، ويجب عليك أن تفخر بهذا بدلاً من أن تحزن.

فقال:

- كيف يا أمي!! إنك لا تعلمين بالخبر!! أين قولك منذ قليل إن والدي لم يمت؟! أحقاً لم يمت؟.

فقلت له أواسيه حتى ينام:

- بالطبع هو لم يمت. فالشهداء أحياء لا يموتون. ألم يقل لك مُعلمك هذا؟، ألم تقل لي هذا؟ وهو الآن بإذن الله في مكان مريح، ليتنا نحظى بمثله. وإذا بكيت فإنه حتماً سيحزن لبكائك، وزيادة على ذلك فإنك ترتكب ببكائك هذا ذنباً.

فقال بانفعال:

- أصحيح يا أمي أن أبي حيّ؟ لقد شرح لنا مُعلمنا أن الشهداء يستقرون في حوصلة الطيور... كما أن والدي مرتاح الآن. عندما أكبر سأذهب أنا أيضاً يا أمي إلى الجهاد. وسوف أقتل الروس والبرشميين[1] الذين قتلوا أبي، وربما أستَشهِدُ أنا أيضاً يا أُمي. أيُمكن أن يحدث هذا يا أمي؟.

فغَرَسَ بقوله هذا سكاكين في قلبي. واستمر يتكلم بدون توقف حتى أشرق الصباح.

* * *

---

(١) أعضاء حزب (برشم) أحد الأحزاب الشيوعية في أفغانستان.

توقَّفَت المرأة الشابة عن الكلام، وغشينا جميعاً الصمتُ، واستغرقنا في التفكير. قالت امرأة عجوز أخرى، وهي تشير بيدها إلى الجبال التي أمامنا:

- أبنائي الثلاثة يقاتلون في الجبهة. ووالدهم شيخ كبير يقطع الخشب في هذا الجبل الذي أمامك، ثم ينزل إلى المدينة ليبيعه.

واستطرَدَت وهي تُنهي حديثها:

- وماذا عسانا أن نفعل يا ابنتي!! علينا بالصبر بعد أن عقدنا العزم على أن نتحمّل عبء كل ما يحدث لنا، إلى أن تنقشع الغُمَّة، ويرحل الروس عن بلادنا.

* * *

كانت كل واحدة من النساء اللاتي في المعسكر تحكي أشياء كثيرة. فهذه امرأة عجوز أخرى - شعرها مخضَّب بالحناء - قالت تواسينا:

- يقولون إنهم بصَدَد مساعدتنا. كلهم كاذبون. يا لَحَظ من يحصل على كيسٍ من القمح مرة واحدة في السنة. إن الله العلي العظيم وحده هو المُعين، فلم يساعدنا أحدٌ حتى اليوم. هناك من يريدون قهرنا وإذلالنا. لكنهم مخطئون. لأننا أولاً

قبل كل شيء نسير على النهج الذي بَيَّنَه الله لنا. وما دام الله في عوننا، فلن نحيد عن هذا النهج أبداً إن شاء الله. لقد مرَّت الأيام الصعبة منذ زمن بعيد، فماذا بقي وراءها!! إن شاء الله ستتحرر بلادنا أفغانستان في أقرب وقت. فقط علينا أن نصمد.

تكلمت النساء. تكلمن كثيراً. تكلمن، واستمعنا نحن لنروي اشتياقنا إليهن... نسينا كل شيء بينهن، وكأننا وجدنا ضالتنا المنشودة... وجدنا أفغانستان الحبيبة التي أُجبرنا على مغادرتها وفراقها.

* * *

كُنَّا بين كلام واستماع، والحديث كله مُنْصَبٌّ على المعاناة التي عانيناها. وفجأة تَذَكَّرْنا عبد الرزاق ومن معه... تُرى؛ ماذا حدث؟.

نهَضْنَا من مكاننا والحيرة تلُفّنا. وأخذنا نتلفتُ فيما حولنا، لم نلمح عبد الرزاق وصحبه من قريب أو بعيد. كانت النساء تَرْمُقنا في دهشة ونحن نتلفت عن اليمين والشمال. أخبرناهن أننا فقدنا أثرَ من كانوا برفقتنا، وأننا نودُّ الذهاب إلى معسكر الأرامل. وودعناهن رغماً عنا، ونحن نردد:

- لعل عبد الرزاق وصحبه في انتظارنا هنا أو هناك. نستودعكن الله، ولا تنسونا من الدعاء.

لقد استرحنا قليلاً، فقد كنا مُرهقات من شِدَّة الحَرّ. أخذنا نحثُّ الخُطى ونتلفتُ حولنا بحثاً عن عبد الرزاق ومن معه، وإذ بنا نراهم أمامنا، يجلسون في انتظارنا في ظل خيمة الإسعاف. فانفرجَتْ أساريرُنا لرؤيتهم، لكن أخي كان غاضباً لتأخرنا، فقال:

- يبدو أنكن لم تتركن امرأة إلاّ واستغرقتن معها في الكلام!! تُرى، ماذا عسانا أن نفعل إذا وصلنا إلى المعسكر في الليل!!!.

قال هذا، ثم تقدمنا مع الرجلين ونحن خلفهم، وقد أدْرَكنا خطأنا. وبعد أن اجتزنا ربوة أو ربوتين، اقترب منا عبد الرزاق، وأشار إلى الربوة التي أمامنا قائلاً:

- اصعدن هذه الربوة، تجدن أمامكن الخيام المخصصة للأُسَر الشهداء. وهذا يعني أنكن بلغتن معسكر الأرامل. وسأكون هنا في انتظاركن. حذار أن تتأخرن إلى الليل، فقد ضايقتموني أثناء الطريق. وهذا كل ما أريد أن أقوله...

توكلنا على الله، وبدأنا صعود الربوة. كانت أعلى ربوة في منطقة معسكر (ناصر باغ). ومع صعودنا كانت مشاعري

تتأجج، حتى أصبحتُ من شدة الانفعال، كأني لا أستطيع أن أخطو خطوة أخرى. وبلغنا نهاية الربوة، وهذا يعني أنني وصلت إلى معسكر الأرامل.

* * *

الربوة مكتظّةٌ بالخيام... الصمت مطبق حولنا، والشمس في كَبِد السماء. تأملنا الخيام البيض المصفوفة... بعضها جديد، وبعضها قديم ممزق... المكان حول الخيام نظيف للغاية... والسكون تام. كاد أن يُغشى علينا من شدّة الحر. رفعنا النقاب عن وجوهنا بعد أن تأكدنا من عدم وجود رجال. كان المكان من حولنا ينطق بالمعاناة.

سواتِر كل الخيام - وهي بمثابة الأبواب - مُسْدَلة. أُزيحَ ساترُ الخيمة التي أمامنا. وخرجت منها فتاة سمراء، في حوالي الثانية عشرة من عمرها، تحمل في يدها طبقاً للغسيل. وبمجرد أن لمحتنا، تركت الطبق على الأرض، وعادت ثانية إلى الخيمة. منظر الفتاة أثار أحزاننا. لكن ها هي تخرج من الخيمة مرة أخرى، وفي يدها بضع قطع من غسيل متسخ... كنا نقف أمام الخيمة، ونتابع كل تحركات الفتاة رغماً عنّا. والأمر الذي حيّرنا، أن الفتاة ربما لم تلحظ وجودنا، أو ربما أيضاً لم تكترث بوجودنا. ألقت الفتاة بقطع الغسيل في الطبق، وبدأت تغسلها.

أخذتُ أتطلع إلى الخيام الأخرى. رأيتُ على مسافة منّا خيمة بيضاء كبيرة بعض الشيء، منصوبة في ركن قصيّ، حولها خيام أصغر منها ونظيفة مثلها. وفوق قائم الخيمة الكبيرة، راية بيضاء تموج بشكل عذب، مكتوب عليها بلون أخضر كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله). نظرتُ إلى الهلال الأحمر المرسوم على سقف الخيمة... ولا أعرف لماذا انشرح صدري لرؤية الراية البيضاء، إنها خيمة الإسعاف. معنى هذا أننا وصلنا إليها أخيراً. تُرى؛ هل سنتمكن من مقابلة السيدة الطبيبة (أَسَفَر)؟... قلتُ لأمي ولزوجة خالي:

- ها هي الخيمة التي تعمل فيها الطبيبة، هيا بنا إلى هناك لعلنا نلقاها.

في طريقنا إلى خيمة الإسعاف، رأينا امرأتين تخرجان من أمامنا وتتجهان إلى ناحيةٍ ما، وقد ارتسمت عليهما علامات الاضطراب. إحداهما نحيفة، تُنْزِل كتفيها، وتضع يديها في خصرها عندما تسير... ملابسها مُرَقَّعة. أمّا المرأة الأخرى. فهي سمراء وترتدي الملابس المرقّعة أيضاً. كانتا تسيران على مهلٍ. استرعت نظراتنا انتباههما، فاقتربتا منا، ورحبتا بنا باللغة الفارسية، ثم سألتنا إحداهما:

- أتبحثن عن أحدٍ هنا؟

أجابت أمي:

- نعم، نبحث عن السيدة الطبيبة (أسفر).

فتبادلت السيدتان النظر إلى بعضهما، وكأنهما تقولان (لقد انصرفت الطبيبات غالباً). ثم أشارت إحداهما - وكانت شديدة النحافة - إلى الخيمة وتساءلت:

- في الحقيقة إن اليوم عطلة، ترى؛ أَلَدَيْكُنَّ أمر مهم؟!.

تسمَّرْنا في مكاننا... كيف نسينا هذا!! نعم، فاليوم بالفعل يوم الجمعة، وهو يوم العطلة. وعندما لاحظت السيدتان حيرتنا، قالت إحداهما:

- ماذا لو أتيتن غداً؟..

ثم استدركَتْ قائلة:

- انتظرن لحظة، فربما تكون بين الطبيبات المناوبات يمكنكن أن تتفضلن بالمجيء إلى خيمتنا الآن لتسترحن، وسأذهب أنا وأستطلع الأمر. وإذا وجدتها فسأخبركن... يبدو أَنَّكُن قادمات من مكان بعيد، ولابُدّ أنكن مُتعبات الآن،... بعد قليل يزول عنكُن التعب. وقد كنا متعَبات حقاً، لذا قبلنا دعوتها.

ونحن في الطريق إلى الخيمة التي أمامنا، قالت أمي:

- لا يمكن... فهذا أمر بعيد عن اللياقة، ليس من البِر أن تتكبَّد السيدة (أسفر) كل هذه المشقة لتأتي إلينا هنا. هيا لنذهب نحن إليها.

ذهبنا مع السيدتين... تقدمتنا السيدة السمراء. وبعد قليل قالت:

- انتظرن... علينا أن نرجع. ليس هناك طبيبات مناوبات على الأرجح، إنهن انصرفن لعدم وجود عمل.

فرجعنا والأسى يملؤنا.

أثناء مرورنا أمام إحدى الخيام، قابلنا امرأة طويلة القامة، ممتلئة، في حوالي الأربعين من عمرها، ذات وجه أحمر وحجاب أسود. ألقت علينا السلام ودَعَتْنَا إلى خيمتها، فقبلنا دعوتها على الفور، وتوجهنا إليها ومعنا السيدتان.

* * *

أمام الخيمة، رأينا مظلة واسعة مصنوعة من قماش قديم، دعتنا المرأة أن نجلس تحتها خارج الخيمة، وفرشت لنا قطعة من القماش على الأرض، فجلسنا فوقها، ثم خلعنا الحجاب الأفغاني، وشربنا ماءً فاتراً من الإبريق الذي في أحد الجوانب.

جلست صاحبه الخيمة مُتَرَبِّعة إلى جوارنا، وانطلقت تتكلم معنا بعذوبة، وهي تضحك:

- هذه هي خيمتنا المتواضعة ومأؤنا الساخن. ألف حمد وشكر لله على حالنا هذا... وأَنْتُنَّ كيف حالكنَّ؟... أهلاً وسهلاً بكنَّ،... عسى ألاّ تكنَّ مُتعَبات.

بدأنا الحديث مع النساء عن معسكر الأرامل. فقالت صاحبة الخيمة وهي امرأة مِضيافة:

- كل هذه الخيام التي ترونها، خيام الأرامل واليتامى. وهي حوالي ألفي خيمة.

سألت أمي:

- أكلها للأرامل واليتامى؟.

أجابت كل النساء في صوت واحد:

- نعم كلها.

سألت أمي:

- وماذا عَنكُنَّ؟

ابتسمت صاحبة الخيمة، وقالت:

- عندما استُشهِد زوجي وابني، وكان برتبة ملازم، كان

لابد أن ينهب الروس بيتي. فأَخَذْتُ بناتي الشابات الخمس، وولديّ هذين، وجئت بهم إلى باكستان. ساعدنا المجاهدون في هذا. ونصبتُ خيمة هنا. وهأنذا أعيش، وتمضي بنا الأيام... أغادر المعسكر في الصباح، وأظل أطوف بين المعسكرات، من خيمة إلى أخرى، أبيع المُطَرّزات، حتى يحل الليل... وهكذا نعيش بعون الله، وتمضي بنا الأيام.

واصَلَت المرأة السمراء - التي قابلناها من قبل - الحديث معنا، وقالت:

- أنا أيضاً، عندما استُشهد زوجي وابناي، هاجرتُ مضطرة إلى باكستان. لي ابنٌ ما زال يجاهد في أفغانستان، ولي أيضاً أربع بنات، ونعيش في هذا الجو المُتقلِّب؛ نجوع مرة، ونشبع مرة.

قالت امرأة أخرى يبدو أنها مريضة:

- مات زوجي بعد مرضٍ. وعندما استشهد ابني وكان مُعلماً، لم يبق لي في الحياة ابن آخر أرعاه، جئنا لنعيش في هذا المعسكر، أنا وابنتاي إحداهما مجنونة، والأخرى عرجاء... نحن ندعو الله ونتوسَّل إليه في كل لحظة، وننتظر اليوم الذي ستتحرر فيه أفغانستان، بالدعاء والتوسل إلى الله... سيرفع الله عن أفغانستان هذه الغُمَّة... هذه السحب

السوداء سواد القطران... رغبتي أن أموت هناك، وأن ترى عيناي المُذنِبَتان هاتان - ولو لمرة واحدة - علم الإسلام وهو يعلو خفاقاً فوق أفغانستان، ولن أحزن إن متُّ بعد ذلك.

بينما الحديث مع هؤلاء النساء مستمر، كانت أخريات يأتين من الخيام المجاورة، ويتجمعن شيئاً فشيئاً، فيلقين علينا السلام، ثم يجلسن إلى جوارنا... كلنا أرامل... كلنا أيتام... كلنا أمهات شهداء.

* * *

جَلَسَتْ بالقرب مِنّي، فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، التفتُّ، ونَظَرْتُ إليها. كانت فتاة خجولاً، في غاية الجمال. تنظر بعينيها الزرقاوين، في كل اتجاه... شعرها الذهبي منسدل حتى خصرها. ورغم الفقر والفاقة، لم تختف الورود الحمر التي تعلو وجنتيها. كانت تميل إلى النحافة والطول. سألْتُها عن اسمها وأنا أضع يدِي فوق كتفها، فاحمر وجهها من شدة الخجل، وأرخَتْ رموشها الطويلة، وقد اعتراها خجل شديد، وقالت:

- اسمي (نازلي).

فتضاحَكَتْ فتيات أخريات، من عمرها نفسه، كن يجلسن

بجانبها ويلْكزْنَها. قالت أرملة، وصَلَتْ من الخيام التي في جوانب المعسكر:

- إن نازلي كانت عَثِرَةَ الحظ... فهي يتيمة الأب والأم...

وقالتْ امرأة أخرى:

- عندما استشهد إخوة نازلي الثلاثة في مدينة (قَنْدَهار) هاجَرَت نازلي مع أسرتها إلى باكستان. وكانوا يقيمون في معسكر (المنصورة). وذات يوم، أصاب الحرُ الشديد والدَها بالجنون، فانهال بالبلطة على أمها، ثم هَمَّ بقتل أبنائه، فأمسكَ به الناس وسَلَّمُوه إلى الشرطة. ولا يعرف أحدٌ حتى الآن، إن كان قد مات في السجن، أم هرب إلى الصحراء. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت نازلي وأخواها في رعاية عمتهم الأرملة.

قَصَّتْ المرأة علينا قصة حياة نازلي المؤلمة، وأثناء ذلك، أخفَتْ نازلي رأسها، والدموع تسيل من عينيها الحمراوين، دمعة وراء دمعة... فجذَبْتُها نحوي برفق، وقلتُ لها لأُخفف عنها:

- نازلي أيتها الجميلة، لماذا تبكين؟. ها أنت ذي ترين أننا جميعاً نعيش المأساة نفسها، ولنا ثواب المعاناة إن شاء

الله.. أليس كذلك؟! أصحيح يا نازلي، يوجد في معسكركنّ خيمة تتعلمن فيها؟.

توقفت نازلي عن البكاء، ورفعتْ رأسها ببطء وقالتْ:

- نعم، إن خيمتنا بعيدة في آخر هذا المعسكر.

فسألتُها: وأنت هل تذهبين إليها للتَّعَلّم؟

قالت:

- نعم، لكني لا أستطيع أن أذهب كل يوم. فأنا أقوم بإحضار الماء، لأن أعمالنا كثيرة.

نَسِيَتْ نازلي كل شيء وأخذتْ هي وصديقاتها يتكلمن بِطَلاوة ويحكين كل ما يَرِد على خاطرهن. وبينما أنا مستغرقة مع الأطفال، كانت أمي وزوجة خالي، تشاركان النساء بكاءهن وكلامهن.

كانت هناك امرأة عجوز تجلس على الأرض، بضفائرها البيضاء، وملابسها الطويلة المرقعة. تحتضن بين ذراعيها طفلاً في الخامسة. الطفل كأنه كرة من النور... طفل صغير ذو عينين خضراوين واسعتين. وكانت المرأة العجوز أثناء تلك الحكايات، تستمع إلى ما يقال وهي تبكي، بدون أن تشارك في الحديث. بينما أعداد كبيرة من النساء ما زالت تلتف حولنا.

استرعى الطفل الصغير انتباهي؛ وأعجبني. كان وجهه ينطق بالبراءة. فمددتُ يدي وأخَذْتُه من المرأة العجوز، وأجلَسْتُه في حضني... وسكَتَ الجميع، وأخَذْن ينظرن إليّ والابتسامة تعلو وجوههن. كان الطفل يرتدي بيجامة مخططة، وقميصاً صغيراً جداً. وقد بَدَا بشعره الأصفر الذهبيّ، شبيهاً بالفتاة نازلي. كان جميلاً بيديه الصغيرتين، ووجهه الممتلئ، لدرجة أنني أحببت ألاّ أتركه. فنظرتُ إلى المرأة العجوز وسألتها:

- جدتي، هل هذا الطفل الصغير حفيدك؟

هزّت المرأة رأسها وقالت والابتسامة تعلو شفتيها:

- نعم يا ابنتي، إنه حفيدي.

كانت أمي وكل النساء، ينصتن إلى ما يقال، فسألَتَها أمي:

- مع من تعيشين؟

هزّت المرأة العجوز رأسها، وقالت والأسى يملؤها:

- لا تسأليني... لا تسألي يا ابنتي... لا تسألي. ماذا أقول؟... ومن أين أبدأ؟!... كل الآلام تجمعت في قلبي. إنني أنتظر كل يوم وكل ليلة، مَلَكَ الموت. لكنني أخاف أن أموت قبل أن يتحقق أملي.

قالت هذا، وامتلأت عيناها بالدموع. وبعد برهة، بدأتْ تقصّ حكايتها. كانت تتكلم برفق، وبطء. وأنا الآن أحدثكم عن قصة الهجرة التي حَكَتْها لي هذه الجدة المهمومة، الثابتة ثبات الجبال، صاحبة الإيمان الذي لا تهزّه أيّة قوة.

* * *

حكاية الجدّة العجوز

منطقتنا، (وزيري دنيز)... أين نحن منها الآن يا ابنتي!!
هذه المنطقة الجبلية الخضراء، البالغة الخضرة، الشبيهة بالجنّة، والمشهورة بمياهها الباردة كالثلج، وبفاكهتها المتعددة الأنواع... يا حبيبتي يا منطقتنا الباسلة... إنها (وزيري دنيز)... عرين المجاهدين التي تقصفها طائرات الكفار ومدافعهم، وتقصف حدائقها، وَوديانها كل يوم.

توفي زوجي قبل سنوات، ولم يبق لي في الحياة سوى ابني. كان زوجي رجلاً متديّناً، ممن يعملون من أجل تطبيق شريعة الله. ورثَ ابني عن والده بضع دونمات من الأرض. كنا نمتلك البيت الذي نسكنه. كما كان لدينا بستان أو اثنان. أرسلت ابني إلى المدرسة بعد وفاة والده. وهو في الصف الخامس أصيب في حادث جرّار، فقد سحق الجرّار ساقه، وصار طريح الفراش. وبعد سنة واحدة، اضطر الأطباء إلى بتر ساقه إلى الركبة، وكنت أعيش مع ابني ذي الساق الواحدة، ونشكر الله ألف مرّة.

ومضت السنون، ولم يتعلم ابني بعد تخرّجه في المدرسة المتوسطة. ووقع على كاهلي عبء الأرض، واكتساب لقمة

العيش عن طريقها. وبعد ذلك زَوَّجْتُه. كنّا سعداء، فقد كان مجتهداً رغم ما به من عرج. كان محتاجاً إلى قوّة ساعديه. لم يكن ابني يفرّق بين غني وفقير، لذا أحَبَّه أهل القرية. كان يسير على الطريق نفسه الذي رسمه له والده، وكانت أكبر أمنياته أن يحج بيت الله.

في السنة التي اسْتَعَد فيها للحج، احتل الكفارُ بلادنا، آه... كم كان حزيناً في تلك الأيام، وكم كان يبكي ويحترق من شدّة البكاء. لم يكن في استطاعتي أن ألم بالشيء الكثير عن هذا الذي يحدث، ويبكي ابني من أجله. فأجلسني ابني أمامه، وبدأ يشرحُ لي ما حدث، ويقول:

- يا أمي، لقد اعتدى الكفار على بلادنا، ويريدون أن يأسرونا. وهؤلاء الكفار لا يؤمنون بالله. وبعد أن يحتلوا بلادنا، سيعملون على تحويلنا عن ديننا. وإذا لم يفلحوا معنا، فسوف يصرفون أبناءنا، وأحفادنا من بعدنا، عن دينهم... أمي، هل تفهمين معنى هذا؟!.. هل تعرفين يا أمي ماذا يجب علينا أن نفعل في هذا الموقف؟ يجب أن نبدأ الجهاد الذي أمرنا به الله ورسوله... نعم يا أمي، بهذا فقط نَنْجو من الكفار... لأننا إذا سكَتْنا، وبحَثْنا عن طريقٍ آخر للنجاة منهم، نكون قد أخطأنا خطأً كبيراً... لكن هؤلاء الكفار، يخافون من المسلمين دائماً يا أمي.

وعندما أُعْلِن الجهاد الأفغاني ضد الروس، وهو ما كان يصبو إليه ابني، كانت سعادته بلا حدود. وكان الله قد رَزَقَه بطفلين؛ أحدهما هذا الذي في حضني، والآخر،... وغاب عن ذهن الجدة العجوز اسم حفيدها الثاني، فبادَرَها أمين الله الذي يجلسُ بين ذراعيها، وأدار وجهه الوضّاء ناحيتها وقال وهو يُذَكِّرها باسم أخيه:

- حميد الله يا جدتي، هل نسيتِ اسمه؟

كانت الدموع تسيل من عَينَيّ المرأة العجوز مدراراً، وهي تستعيدُ ذكريات الأيام الخوالي، ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- نعم، أمين الله، وحميد الله. عندما نطقَ ابني بالحروف الأولى لأول مرة، أسرَعْتُ بتعليمه أركان الإسلام الخمسة... الشهادتين، وكل شيء يمكن أن يردِّده بلسانه. وكان أوّل من سارع إلى الجهاد في قريتنا. كان يقول والأسى يعتصره:

- ماذا عساي أن أفعل يا أمي بساق واحدة؟؟ لو لَمْ أَفْقِد ساقي الثانية، لمنعتُ أي كافر من الاقتراب من القرية.

كان المجاهدون يحاربون ذات يوم مجموعة من الروس هجموا على قريتنا، ولأن ابني لا يستطيع الاشتراك في مقاومتهم بسبب ساقه المبتورة، هَوّنَ عليه القائد الأمر بقوله:

- هداية الله... إنك تريد الاشتراك في الجهاد، لكن إذا لم تُوفّق في بعض الأعمال بسبب ما بك، فلا تنس أن حِفْظَ الروح أيضاً فريضة. وخوفي هو أن تقع في الأَسْرِ.

قال القائد هذه العبارة لِيُثْني هداية الله عن الاشتراك في بعض المعارك الشديدة. وذات مساء، رجع ابني إلى البيت وهو مهموم، وقال لي:

- القائد على حقّ يا أمي... فقد أتسبَّبُ في خسارة للمجاهدين إذا وقعتُ في أَسْرِ الروس؛ إذ ربما أفشِي سرّ الجبهة كلها تحت تأثير التعذيب. لكن لن أَدَع الجهاد. قد لا أستطيع الحرب بالسلاح بسبب إعاقتي، لكني سأشاركُ إن شاء الله في هذا الجهاد بِطُرُق أخرى. كيف؟! كيف لي أن أتركَ الجهاد يا أمي؟!... أخبريني.

والواقع أن ابني هداية الله، اشترك بالفعل في الجهاد. كان ينزلُ إلى المدينة، ولم يكن يُثير شكوك أحد، لأنه مجرّد رجل أعرج. لذا استطاع بسهولة أن يُوطّد صلته بمجاهدي (جلال آباد)، وكذلك مع النظام الشيوعي.

ذات يوم قال للشيوعيين:

- لقد ضاق الناس ذرعاً بالمجاهدين. ونحن أيضاً لا نريدهم. إننا مستعدون للتحالف معكم. وأنا مستعدّ أن

أنْدَسّ بين المجاهدين، وآتي لكم بكل تحركاتِ وخططِ هؤلاء الأشرار؛... هذا طبعاً إذا رغبتم.

وافق الشيوعيون على الفور وقالوا له:

- أحْسَنْتَ أيها الأعرج، إننا في أشد الحاجة لهذا، ولن يشك فيك هؤلاء الأشرار، مهما كان الأمر... عليك أن تعرفَ لنا أماكن تخزين ذخيرتهم كلها، وسنعطيك جهازاً لا سلكياً، وبعض الوسائل الأخرى اللازمة لهذه المهمة.

ولكي ينال ابني المزيد من ثقتهم، قال:

- لكني في حاجة إلى شيء... إني كما ترَوْن رجل أعرج، وحاجتي شديدة إلى النقود.

فأجابوه، وهم يسخرون منه، ويهددونه في الوقتِ نفسه:

- لا تشغل بالك بهذه المسألة. فإن لنا معك حديثاً آخر بشأنها. وسوف نعطيك أكثر مما تتصوّر... يكفي أن تعمل ما عليك. وإلاّ فالويل لك كل الويل، إذا تلاعبت بنا... ففي ذلك الوقت، تكون أنت الجاني على نفسك... واحذر، فإننا لن نأْبه بدموعك.

وكان قائد المجاهدين يقول دائماً لابني:

- كان الله في عونك يا هداية الله... فالجهاد الذي تجاهده يعلو فوق جهادنا علوّاً كبيراً.

وكان ابني يحدِّثني:

- أمي... لا تبكي إذا استشهدتُ في هذا السبيل. ولا تنسي أن هذا ما علّمني إيّاه أبي... يبقى بَعْد ذلك وقَبْله، أن هذا ما أمَرَنا به الله عزّ وجلّ... آه يا أمي... يجب أن أنجح فيما أنا فيه، وإذا متُّ... فلا تحزني.

كنت أدعو له دائماً بهذا، لكنه عندما نطقَ كلمة (متُّ) انشقّ فؤادي، وكأن الدنيا كلها ستنهار فوق رأسي... فأنا أمٌّ قبل كل شيء... أمٌّ ربّتْ ابنها بألف حُبٍّ وشوقٍ وأملٍ، وكنت أمتلئ سعادة، لأنه يسعى في سبيل الإسلام... فأنا التي وجَّهَتْه إلى هذا الطريق، وقد سار فيه.

كان ابني يقدِّم دائماً تقارير خاطئة إلى البرشميين، ويحصلُ منهم على معلومات مهمة جداً، يَنْقلها بدوره إلى المجاهدين. واستمرَّ يعمل على هذا المنوال سنة كاملة... كان موفَّقاً دائماً، دون أن تَحُوم حوله أيّة شُبْهَة. فلم يكن أحد يعلم شيئاً عن ذلك الدور الذي يضطلع به ابني سواي وقائد الجبهة.

وفي السنة الماضية، قال له قائد الجبهة: إن الأوان قد آن لتقوم بمهمة ضخمة. استغرق إعدادها أياماً وأسابيع، بل وأعواماً. والخُطة أن ابني - وكان دائم التردد على مركز

الحراسة القريب - أبلغ الشيوعيين قبل أسبوع من موعد تنفيذ الخطّة، أن قائد المجاهدين سوف ينزل إلى القرية في ليلة معيَّنة، ومعه مئة أو أكثر من المجاهدين بأسلحتهم، ويريد صاحب البيت (فُلان)، أن يدعو القائد والمجاهدين إلى طعام، وهو بحاجة إلى شراء غنم وأبقار، وإنها لفرصة للبرشميين أن يشنّوا عليهم هجوماً مباغتاً. وكان ابني قد قدّم لهم من قبل بعض التقارير، وكان يبدو فيها أنه صادق... وهكذا استطاع أن ينال المزيد من ثقتهم. وكانوا يغمرونه - وهُم سعداء - بسَيلٍ من النقود، فقالوا له:

أحسنْتَ أيها الأعرج الداهية. والحق إنك لماكر. نَعِدُكَ أننا إذا نجحنا في القبض عليهم أحياء، أن نعطيك من المال ما يكفيك لسنوات طوال. والواقع أنك جِئْتَنا بخبر عظيم. واتفقوا معه على كيفية تنفيذ الهجوم.

* * *

كان كل شيء مُعَداً تقريباً. بدأَتْ مفرزة من البرشميين والروس في الإعداد للهجوم قبل ليلة من الموعد المحدد، وذلك حتى لا يتنبه المجاهدون لوجودهم. ولأن عَدَدَ المجاهدين كان يزيد على المئة، كانت خطة البرشميين تهدف إلى محاصرة المجاهدين بمفرزة من الجند والأسلحة.

أبلغ المجاهدون كل الجهات القريبة منهم، بحاجتهم إلى أعداد إضافية من الجند والسلاح. وفي اليوم المحدد، نزل إلى المأدبة مئة من المجاهدين. وأحاط الباقون بالطرقات والبيوت والحقول، بل وَبِكُل مكان في القرية، تأهباً لقتال البرشميين. لم يكن لدى البرشميين في الوقت نفسه، أي خبر عن حصار المجاهدين لهم من كافة الجهات. كما لم يكن لدى المجاهدين، أدنى خوف من هجوم طائرات البرشميين، ذلك لأن الوقت كان ليلاً. وكان كل شيء يبدو وكأنه طبيعي وحقيقي؛ فقد ذُبح الدجاج، والغنم، والبقر، وبدأ المجاهدون يأكلون بسرور. عندما تأكد بقية المجاهدين - وهم يحيطون بالقرية - أن الروس يحاصرون المنزل الذي أضاف المجاهدين؛ قاموا بالهجوم على الروس من الخلف بأسلحتهم الثقيلة والحديثة. آوت جهنم مئات من الجنود الروس، وكانت الغنائم في تلك الليلة لا تحصى، لكن خمسة عشر من المجاهدين، استشهدوا.

أصدر قادة المجاهدين أوامرهم للأهالي بإخلاء منازلهم قبل الهجوم. فصعِدْنا كلنا إلى الجبال، رجالاً ونساءً وأطفالاً. وعندما علم البرشميون قبيل الظهر بأمر الهجوم، وقع عليهم الخبر كالصاعقة... فَأَتوا بثماني طائرات مروحية، وثلاثِ طائرات نفاثة، وأمطروا القرية بوابل من المدافع ونيران الطائرات لمدة يومين وليلتين وتركوا القرية خراباً يَبَاباً.

اضطررْنا إلى مغادرة القرية، فهاجر البعض منا إلى القرى المجاورة أو المدن، والبعض الآخر إلى باكستان. وأخذت الحكومة تبحث بغير توقف عن هداية الله الأعرج، وأعلنوا عن مكافأة لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً.

كنا نقيم مع هداية الله في الجبال؛ أنا وزوجته وطفلاه. ومضى على ذلك شهران. وذات ليلة نزل ابني إلى القرية. فأمسك به رجال الحكومة، الذين كانوا يتربصون به بإصرار، بينما بقيت مع زوجته وطفليه في الجبل. وقال الذين رأوه ساعة القبض عليه:

- إن رجال الحكومة، أوسعوه ضرباً بمؤخرة بنادقهم، وصفعاً وركلاً. ثم سحبوه وقذفوا به داخل دبابة، وهم يصيحون:

- تكلم أيها الخنزير الأعرج... في أي جُحْرٍ كنت تختبئ؟؟ ألم نحذِّرك من مغبة خداعنا؟! هيا اطلب من إلهك أن يأتي ويخلصك من بين أيدينا... هيا أفصح. وما أن عرف قائد المجاهدين بالأمر، حتى نزل من الجبل إلى القرية ومعه المجاهدون. لكن البرشميين كانوا قد أخذوا هداية الله ومضوا منذ حين. أما الذي وَشَى بابني لدى رجال الحكومة، ودَلَّهُم على مكانه، فكان جاسوساً من جواسيسهم، غادر القرية معهم عقب القبض على ابني.

أيامٌ مضت وأنا أبكي، عاجزة عن عمل شيء... وأخيراً، كان لابد من اتخاذ قرار. لابد أن أَتَلَمَّسَ أخباره مهما كانت النتيجة. فلما تناهى إلى سمعي أنهم نقلوه إلى المدينة (جلال آباد)، هرَعتُ إلى هناك. ورابطْتُ على أبواب السجن ليل نهار، لعلي أعرف خبراً عن ابني. وكان أولئك العملاء يهزؤون بي ويصرفونني بقسوة، فيدفعون بي بعيداً وهم يشتمونني بأقذع الألفاظ... ورغم هذا صبرتُ... وانتظرتُ، لعلي أتمكن من معرفة خبر عن ابني.

وذات يوم كنتُ أقف أمام سجن كبير يسمى (سجن حدّ)، - وهو أكبر سجون جلال آباد - وأتطلع بعيون متوسلة إلى أولئك العملاء لعل الله يرقّق قلوبهم، ويحسُّون بآلامي. وجلستُ على الأرض القرفصاء، وأمسكتُ في يدي (سورة يس) الشريفة أتلوها بعينين دامعتين، وأتفَلُ ناحية السجن، وأنا أتلو الدعاء تلو الدعاء.

اقتربَ مني أحد البرشميين، وكان يتمَنْطَقُ بسلاحه، ويقضمُ تفاحة في يده، فشدَّ قامَتَه وصرخَ في وجهي وهو يرفسني بقدمه في خصري رفسة قوية:

- ماذا هناك أيتها المرأة القذرة، ماذا تنتظرين؟ وما قصدك؟!

التويتُ في مكاني من شدة الألم، بينما واصل ذلك البرشمي رفسي وأخذ يلكمني والزبَد يتطاير من فمه، ويصرخ بأعلى صوته:

- تكلمي... أَعَنْهُ تبحثين؟... أعن هذا الأعرج الملعون؟ إني أراك هنا يومياً، لكني لم أكن أعرف أنك أم ذلك الأعرج... اسمعيني أيتها المرأة القذرة؛ لقد تسبب ابنك في تلك الليلة، في مصرع أخي وزوج أختي، وهو الآن في قبضتي أُسِيمه سوء العذاب ليل نهار... لا تبحثي عنه بعد الآن...

وبمجرد أن سمعتُ هذا، أظْلَمَتْ عيناي، فلم أعد أرَى شيئاً.. فلما رآني عاجزة عن الرد، أمسكني من شعري وقال:

- تعالي إذَن... تعالي وشاهديه...

ثم جرَّني من ذراعي.

كنت أمسك في يدي سورة يس الشريفة، وأضع تحت ذراعي الصرّة التي أحضرتها إلى هداية الله... فانتزع الصرة من تحت ذراعي وألقاها جانباً. كان يتصرف وكأن شيئاً ما أصاب عقله. ثم رفع الصرة التي ألقاها، وأخذ يضحك... كان يضحك وهو ممسك بذراعي ويدفعني.

كانت رائحة الدم تنبعث من كل مكان. والرائحة الكريهة

تغشى المكان كله. ثم دفعني ذلك العميل إلى حجرة مظلمة. المكان تملؤه رائحة مُنَفِّرَة كدتُ أختنق منها. كانت الحجرة رطبة، أرضيتها ترابية لم أستطِع أن أرى شيئاً من شدة الظلام... يصدم أذني صوت أنين يتردد من حين إلى آخر. كان الألم يلف كل أطرافي، وينخر كُلَيَتي. أشعَلَ البرشمي - وكان يبدو عليه غضب الله - سِراجاً، وأَمْسَكَه في أحد أركان الحجرة، ثم لكَمَني في ظهري وهو يقول:

- انظري أيتها الخائنة إلى هذا الركن. الْتَفَتُّ بسرعة إلى حيث أشار، ونظرتُ إلى المكان، واقتربتُ إلى الركن تحت سيل من ركلات البرشمي، وأنا أبكي وأنتحب... لقد كان هو... لقد عَرفْتُه... إنه ابني. مررتُ بيدي على شفتيه المتورمتين نتيجة الضرب المبرح، فبدأ يَئِنُّ. كلّمْتُه وأنا أبكي:

-يا بني... يا هداية الله... يا حبيبي، ويا روحي... افتح عينيك... أنا أمك... انظر إليَّ... افتح عينيك... افتحهما.

كان البرشمي جاثماً فوق رأسي مثل الدب، ويضحك... فتح الصرة التي في يده، وألقى بالملابس والمنشفة، وبعض الأشياء التي وضَعْتُها بداخلها،... ألقاها على هداية الله وهو يهزأ قائلاً:

-خذ... إن أمك تحبك كثيراً، انظر...

اسْوَدَّتْ الدنيا أمام عينيّ، وملأ الطنين أذنيّ، ثم فقدتُ وعيي. وعندما أفقتُ وجدتُ نفسي ملقاة في أحد الشوارع... بدأ كل شيء يمر أمام عيني ببطء. تذكرتُ منظر المكان الرطب الذي رأيتُ ابني راقداً فيه، وزرقة الكدمات تعلو جسده... تذكرتُ هذا، فوضعْتُ يديّ فوق أذنيّ، لأصرخ بأعلى صوتي... وانخرطْتُ في البكاء. لم يتقدم أحد لمساعدتي، وطبيعي ألاّ يستطيع أحد مساعدتي، وإلا تجرّع العذاب نفسه. وجاهدتُ نفسي لأنهض ببطء.

قضيتُ بضع ليال في بيت أحد أقاربنا في (جلال آباد)، لا أتذكر كيف عثرْتُ على البيت، لكني رجعت بعد عدة أيام إلى السجن، لكي أنتظر أمامه مرة أخرى.

هرع نحوي أحد الجند المناوبين - الذي صار يعرفني الآن، بعد رؤيته لي يومياً أمام باب السجن- وقال:

- أيتها الجدة، ماذا جرى لكي تعودي ثانية، ألا تخافين!

نظرتُ إليه بمرارة وقلت:

- كلا لا أخاف. فلا خوف إلا من الله وحده.

فرمقني الجندي بنظرة حائرة، فاغراً فاه، ثم انحنى بجواري برفق، وهمس بصوت خفيض:

- أتعرفين يا أمي ذلك الرجل الذي ضربك في ذلك اليوم... لقد قُتِل أثناء الهجوم ا لليلي الذي شنَّه المجاهدون الليلة الماضية.

نظرتُ إلى ذلك الجندي في ذهول، غير مصدقة ما يقول... وعلى الفور سجدتُ لله شاكرة ودعوته:

- الحمد لله رب العالمين. أجدني يا ربي عاجزة عن شكرك حق الشكر. ساعدني يا رب، وأنعم علي بكريم عونك.

همس الجندي:

- أمي... اكتبي التماساً وقدميه إلى إدارة السجن، فقد يطلقون سراح ابنك وتنتهي الصعاب التي تعترض طريقه. هيا اذهبي وادعي لي، لا تنسي...

أطلتُ النظر إلى الجندي وهو ينصرف، كنت مشدوهة. نهضتُ من مكاني واقتربت من الحارس الذي بباب السجن، أرجوه:

- اكتب لي التماساً يا بُنَيّ، وأكون لك من الداعين.

نظر الرجل إليّ بغضب، وقال:

- ادفعي لي أجر كتابته.

أخرجت خمس مئة (أفغاني) من النقود التي في الحزام المربوط حول خصري، ودفعتها إليه قائلة:

- ها هي ذي النقود، خذها واكتب.

رأى الرجل النقود... فَلَمَعَتْ عيناه، وأمسكَ بيده الورقة والقلم، وبدأ يكتب ما أُمليه. خمسة أيام وأنا أطوفُ بالتماسي من باب إلى باب، وفي نهاية الأمر، قالوا لي: تعالي غداً.

انتظرت اليوم التالي بفارغ الصبر. صليتُ صلاة الصبح وابتهلتُ إلى الله، ثم خرجتُ مسرعة. وعند باب السجن، قالوا لي: إن المدير في انتظاري. مشيتُ وراء الحارس، وأنا مفعمة بالانفعالات، انفتح باب إحدى الحجرات. كان في الحجرة رجل نحيف، يجلس على رأس مائدة. عندما دخلنا؛ رفع الرجل رأسه، وقال للحارس:

- الآن يمكنك أن تنصرف.

بقيت في الحجرة وحدي، فأشار لي المدير بالجلوس، ثم قال:

- لقد مات ابنك بالأمس، على الرغم من كل محاولاتنا. فقد كان مريضاً من قبل.

سمعتُ ما قاله، فنهضْتُ من مكاني، وتقدمْتُ نحوه بلا وعي. فنهضَ المدير من مكانه، وأجلسني، وبدأ يتكلم. قال كلاماً كثيراً، لم أسمع منه كلمة واحدة... ثم أغمي

عليّ. وعندما أفقتُ، وجدتُ بضعة أشخاص ينثرون الماء على وجهي. فاعتدلْتُ جالسة.

كان المدير ما زال يجلس في مكانه، معتدل المزاج، هادئاً... ثم قال:

- اسمعيني يا أمي... يجب أن تشكريني لأنني أخبرتك بما جرى لابنك... يكفي أنك عَلِمْتِ به. فآلاف من الناس يترددون على هذا المكان كل يوم بأمل أن يعرفوا شيئاً عن مكان ذويهم المحبوسين... وقد أخبرناك بالحقيقة لأننا أشفقنا عليك... ورغم هذا، لم تشكريني، بل بَكَيْتِ... أيصِحُ هذا؟!

نعم، كانوا ظالمين إلى هذا الحد. فليحاسبهم الله، وليكن حسابه لهم قريباً.

* * *

مرّت ساعات وأنا في مكاني... أبكي وأتفجّع... وأخيراً قلت للمدير:

- أيها النذل الوضيع، ستلقى ذات يوم - بإذن الله - جزاء سخريتك منّي. لكن بقي شيء أخير أود أن أسأل عنه... هل رأيت ابني؟... أم...

ولم أكد أفرغُ من سؤالي، حتى قطَبَ المدير حاجبيه، وصاح:

- اسمعيني أيتها العجوز أنت امرأة جاهلة، لا تُقَدِّرين قيمة المعروف الذي أسديناه لك. ولو أنك قَدَّرْتِهِ، ما تصرفتِ بهذه الطريقة... اسمعي، لقد مات ابنك بالأمس فقط، وجسده ما زال عندنا... إذا كنت تودين تَسلُّمه، نُعْطِه لك، لكن... هذا عمل صعب، ونحن في هذه الأعمال نُعرِّض أنفسنا للخطر. لذا، نريد منك مبلغ خمسين ألف (أفغاني) مقابل تسليمك جثمان ابنك... فكري جيداً، ولا تظني أنني آخذ هذه النقود لنفسي، إنما أدفعها رشوة لبعض الأشخاص، لكي يُخرِجوا الجثمان من السجن. وأنا أوضِّح لك هذا، إنني تألمتُ لحالك... يمكننا أن نسلمكِ جثمان ابنك غداً... مساءً.

قال كل هذا وهو يطردني. خرجتُ من السجن. كان الجوُّ مظلماً، وأنا عاجزةٌ عن المشي. يا حبيبي... يا فلذة كبدي. لقد استُشهِد ابني الوحيد.

كلمات ابني تَرِنّ في أذني:

- أمي... لو وقعتُ في يد الكفار... لو عذَّبوني... ثم قتلوني، لانتهَتْ آلامي. ولا فرق عندي إن مَثَّلوا بجسدي وألقوه للكلاب بعد ذلك.

آه يا ولدي... يا حبيبي... كيف؟ تُرى ماذا أقول لزوجتك؟؟ يجب أن أشتري جثمان ابني من يد قاتليه. بكيتُ الليل بطوله، وفكّرتُ فيه، كيف كان يأتي وهو يجري بساقه الواحدة، ويقول:

- أمي، المجاهدون قادمون... استعدي. عندما أستشهد يا أمي، إيّاك أن تبكي من بعدي، وإلاّ تفسد شهادتي، ولا يمكنني أن أتشفّع لك، إيّاك يا أمي، احذري.

كان أقاربنا الذين أقمت معهم في بيوتهم، يبكون مثلي وينتحبون، وفي الوقت نفسه يفكرون كيف سينقلون جثمان هداية الله مساء غدٍ من السجن إلى القرية. لا توجد في الدنيا أمٌّ، يمكن أن تتحمّل، والله لا تستطيع أن تتحمّل، عندما تسمعُ خبر استشهاد ابنها... إنه فلذة كبدي، إنّه قلبي... إنه دمي الذي يجري في عروقي... يا ربي، تُرى؛ كيف أعيش بدونه!... ثم ما مصير أمين الله وحميد الله، أفكر في هذا بينما كلمات ابني ترنُّ في أُذُنَيّ:

- أستودعك الله يا أمي وإيّاهما بعد نفسي. وما كان يردده دائماً: أمي... في اليوم الذي تتحرر فيه بلادنا أفغانستان، تصَدّقي بأكبر وأجمل بساتيننا، إلى أفقر رجل تعرفينه، صَدَقَة نرجو بها شكر الله.

في الليل، اقترضتُ مبلغ خمسين ألفاً من أقاربنا، واصطَحَبْتُ ثلاثة من رجالنا، وتوجهنا إلى السجن بعد صلاة العشاء لاستلام جثمان ابني. كان المدير ينتظرني... أَذِنَ بدخولي أنا فقط، فدخلتُ. بدا هو كما لو كان مشغولاً بأشياء على المائدة... ثم رفع رأسه، وترك الأوراق التي في يده، ورمقني قائلاً:

- أأنت؟.. كل شيء جاهز. سنسلمك جثّة ابنك. إنها على النقّالة في العربة نصف النقل التي بالخارج، وستحملها إلى بيتك. لكن لا بد من السرعة.. ممنوع التجوّل كثيراً بالخارج... كما أن حظْرَ التجوّل مفروض على الشوارع ليلاً.

قال هذا وعيناه مغروستان في يديّ. أدركتُ ما يرمي إليه: النقود. فنظرتُ إليه باشمئزاز... لم يكترث بنظراتي المشمئزة، أو بِلَوْعةِ الحزن التي تعتصرني. كانت عيناه مصوَّبتين على يديّ، كأنه ذئب جائع. كان يرتعش ارتعاشة الطمع. وبدأ يفقد صبْرَه شيئاً فشيئاً، وغَلَبَتْهُ خِسَّته، فلم يُطِق صبراً، وانطلقَ يقول:

- هيا أسرعي... لم يعد في قوس الصبر منزع.

انطلقَت الكلمات من حلقه، في طمع وانفعال وهَمْس. فمددت إليه خمسين ألفاً، ملفوفة في قطعة من قماش،

فخطفها من يدي، وفتحها بيديه المرتعشين، وَأَخذَ يَعدّ النقود بلهفة وسرعة. ولما تأكد أنها المبلغ المطلوب، قال:

- يمكنك الآن أن تنصرفي.

وقفتُ بصعوبة، والتفتُّ إليه للمرة الأخيرة، وقلت:

- إنّ يوم الحشر لقريب، وهو يوم حسابنا الحقيقي معك. أعجز عن تصوُّرِ مدى العذاب الذي ستلقاه جزاءً وفاقاً لبيعك أجساد الشهداء إلى أهلهم!! أتدرك أنت عاقِبَتَك؟! ربما قتلتَ ابني لتتاجر بجثته، فتبيعها، وتقبض الثمن، وتنسى أن للأمهات آهات وقلوباً... أرجو اللهَ أن ترتد عليك كل روبية من هذه النقود، عذاباً وجحيماً، وأن يُذيقك الله في الدنيا خمسين ألف عذاب.

وبينما أنا مسترسلة في الكلام، قاطعني قائلاً:

- انصرفي. انصرفي ولا تزيدي كلمة واحدة. لا بد أن تعرفي أننا سَنُثَابُ على عملنا هذا ثواباً كبيراً. يمكنك أن تأخذي نقودك وتذهبي، هذا إذا كنتِ لا تريدين جثمان ابنك.

سمعتُ قوله هذا، وانصرفتُ.

* * *

كانت ساقاي تلتفان حول بعضهما من شدّة الحزن والتعب، ويكاد قلبي يخرج من حلقي من فرط الانفعال. وما إن وقعَتْ عيناي على النقّالة خلف العربة، حتى كاد أن يغمى عليّ. فأمسكتُ بحافة العربة كي لا أسقط على الأرض. كان الجثمان مغطى بغطاء أبيض، وقد ظهرتْ منه قدما ابني المتورمتان الداميتان... رأيتهما فأحسستُ كأنني طُعِنتُ في قلبي. وفقدتُ وعيي وأنا أصرخ وَأُوَلْوِلُ وأنتزعُ شعر رأسي.

اقترب بعض أقاربي، ورفعوا الجثمان من على الأرض، وحاولوا أن يضعوه عند الطرف الأمامي من العربة، وكنت أثناء هذا أتفجّع بأَنين:

- كلا، كلا، يجب أن أبقى إلى جواره، أُريد أن تَشْبَع عيناي منه. عندئذ اقترب منّي شيخ كبير طاعن في السن، ذو لحية بيضاء، وقال:

- اصبري، إيَّاك والبكاء. انظري إليّ واسمعيني... منذ أعوام ثلاثة كاملة، وأنا أتنقَّل من باب إلى باب بحثاً عن ابني وحفيدي اللذين أُلقيَ القبض عليهما ومعهما أسلحتهما. أنا راضٍ أن أجدهما، حتى لو كانا جثتين هامدتين. يكفي أن أعرف خبراً عنهما. فمنذ أعوام وأمُّه وزوجته في انتظارهما... هيّا كُفّي عن البكاء، اشكري الله، وادعي لابنك أن يتغمده الله برحمته، ويلهمك الصبر والسلوان لفراقه.

كانت كلمات هذا الرجل عزاء لي. فكشفتُ الغطاء عن وجه ابني. كان مقطَّع الأوصال. وجهه مكدوم وكذلك عيناه. شفتاه متفجِّرتان. الحروق تبدو واضحة في يديه وقدميه. ملابسه غارقة في الدماء. لحيته مشعَّثة وغير منتظمة. وبرغم هذا كله كان النور يتألق من وجهه. ولم أَقْوَ على الاحتمال. فقبَّلْتُه في جبينه. وكنت هذه المرة أبكي في صمت... وأفكِّر؛ كيف يمكن إتمام كل شيء في أقصر وقت ممكن؟. كان قلبي يقطُر دماً، لكن عليّ أن أصبر، وأن أدعو الله شاكرةً.

* * *

وصلنا إلى البيت. استقبلتني النساء معانقات باكيات. وفي اليوم التالي، حملنا الجثمان عليشاحنة، واجتمع المجاهدون. لم تكن زوجته تتوقَّع أبداً شيئاً كهذا، وما أن وقَعَتْ عيناها على الجثمان، حتى هاجت وبكت، كان أمين الله، وحميد الله، ما زالا صغيرين؛ فلم يُدرِكا شيئاً مما جرى. وبعد أن وارينا الجثمان الثرى، صار كل تفكيري منحصراً في ولَدَيْه، أمين الله وحميد الله. أصبحتُ مسؤولة عن تربيتهما.

انهار البيت... وانتهى كل شيء. ومرَّت بعد ذلك بضعة شهور. وذات يوم، جاءتني زوجة ابني تقول:

- إني أريد العودة إلى بيتنا، هذا بالطبع إذا أَذِنْتِ لي.

فأذنتُ لها بالذهاب. ومرَّ عام بعد ذهابها، مرَّ العام بسرعة. ثم جاء والدها - وكنت آنذاك في الجبل، ومعي حفيدي الصغير - وقال لي:

- تعرفين أن هداية الله استشهد. وابنتي شابة. وأحد أقاربنا يطلبها للزواج. وقد عزَمْتُ على تزويجها له، لكني أودُّ أن أعرف؛ هل أذِن لها هداية الله قبل استشهاده، أن تتزوج من بعده، أم لا؟. إنه لم يتكلم في هذا مع ابنتي، وربما حدَّثك في هذا الأمر. وهذا سبب مجيئي الآن.

وكأن أحدهم غرس سكيناً في قلبي. معنى هذا أن كل ما سمِعْتُه كان صحيحاً. وواقع الأمر أن ما سأقوله لن يؤثر فيه بأي شكل من الأشكال... لقد كان المجاهدون يحبون هداية الله حباً جماً. ربما فكَّر في أنني إذا لم أوافق على ما جاء بشأنه، قد أُسَبِّبُ له حرجاً وخوفاً من المجاهدين. بَدَوْتُ وكأن لساني قد انعقد... كان قلبي يحترق. وبعد تريُّث، قلتُ له:

- نعم لقد قال لي ابني قبل استشهاده، يا أمي، إئْذَني لزوجتي أن تتزوج من بعدي، هذا إذا شاءَت. فما من شيء يهمني بعد أن أبلغ مرتبة الشهادة. وإن كنت أظن أنها لن تتزوج بعدي.

فابتهج لقولي هذا، وقال بانفعال:

- أرجو ألاّ يضيق صدركِ لزواجها. لك أن تبقي معها إذا شئتِ، وإلاّ فإننا سنرسِلُ لك نفقات المعيشة. كما أن حميد الله وأمين الله سيظلان معك؛ هذا إذا رغبْتِ.

وهكذا عبَّر عن عدم تَقَبُّله للولدين. فلم أطق صبراً، وقلتُ له:

من تلقاء نفسي أَرْفُضُ أن أتركهما لك. هيا، صاحَبَتْكَ السلامة. أَرْسِل حفيدَيَّ، والله خيرٌ حافظاً.

انصَرَفَ، ثم أرْسَلَ حفيديَّ بعد أسبوع. احتضَنْتُهما بحنان، وتضرعْتُ إلى الله بدمع عينيّ أن يحفظهما.

تمضي الأيام، والأسابيع، والشهور. وأنا في الجبل مع المجاهدين. أصبحت عبئاً عليهم، أتَنَقّل معهم حيثما ذهبوا... لم يبق في القرية أحد؛ ذلك لأن القنابل كانت تنهال عليها كل يوم. ولم يبق في الجبل عائلة سواي أنا وحفيديَّ... كنت مشتَّتَة. أحياناً يستخدم الروس الغاز السام في الجبال، ويصبُّون حِمَمَ قنابلهم على كل حَجَرٍ في الجبل. كان المجاهدون يشعرون بالمسؤولية نحونا، كما أن كِبَر سنّي يُعجِزني عن التنقل بحفيديّ معاً. لهذا كنت أظن أننا سنسقط في يد الروس إن عاجلاً أو آجلاً.

صارت حياة الجبل شاقة بالنسبة لي. كنتُ أخشى أن

أتسبَبَّب وحفيداي في إلحاق أدنى أذى بالمجاهدين. وذات يوم قلت لقائد الجبهة:

- يا ولدي، يصعب عليّ الآن البقاء معكم في الجبل، وأعرف أنني أصبحتُ عبئاً عليكم. وأخشى إن نزلتُ من الجبل، أن يؤذِي البرشميون حفيديّ... حفظك الله، فقد أوليتنا عناية كبيرة، لكني الآن أريد الهجرة إلى باكستان. هذا، إذا أذِنتَ لي... وقد سمعتُ أن مجموعة من المجاهدين ستذهب إلى (بيشاور) بعد أسبوع... أرْسِلْنا معهم إذا كان ذلك ممكناً، ربما نكون عبئاً عليكم لكن...

فقاطعني القائد:

- مطلقاً يا أمي... أتودين فراقنا،... إلى أين؟! لا تقولي كلمة عبء، فأنتم معنا إذا أكلنا أو شربنا... وإذا استشهدنا، نكون أيضاً معاً... وإذا انتصرنا، انتصرنا معاً. كيف تُبعدين عني أمين الله وحميد الله!! إلاّ إذا كنت لا تعتبرينني بمثابة ابنك!.

قال هذا واغْرَوْرَقَتْ عيناه بالدموع. أما أنا فكنتُ أبكي وألِحُّ عليه أن يأذَنَ لنا بالذهاب إلى باكستان. فسألني مع مَنْ سأقيمُ في باكستان، وكيف سأعيش هناك، ولم يود أن يتركني وهو يفكر في المتاعب التي سنواجهها... وأخيراً قال:

- تقولين يا أمي إنك تريدين الذهاب إلى باكستان، حسنٌ اذهبي ولا تنسينا في دعائك، إن شاء الله نلتقي مرة أخرى، عندما تتحرر أفغانستانُنَا.

وأذن لنا القائد بالهجرة، وقلبه ينفطر حزناً. وفي اليوم التالي، جمع من المجاهدين مبلغاً من المال وقدمه لنا لمجابهة نفقات الطريق، فمنهم من قدَّم عشراً، ومن قدّم عشرين أو ثلاثين روبية أفغانية.

كان عليَّ أن أغادر قريتي الحبيبة بعد أسبوع واحد. أأُغادِرُ قريتي، وبيتي، وطعامي... كيف لي أن أغيب عن كل هذا؟. كان أكثر ما يزعجني، تُرى؛ هل سأستطيع أن أزور قبر ابني هداية الله مرة ثانية؟.

* * *

قبل الهجرة إلى باكستان، كنت أنزلُ كل يوم إلى القرية، فأزورُ قبر ابني وأدعو له، وأجلسُ فوق تراب بيتنا الذي أمسى خراباً، فأبكي الساعات الطوال... لقد صارت القرية خاوية على عروشها، لا أثر فيها للحياة. وكنت أقطعُ الوقت بجوار قبر ابني... وأحياناً أصطحب أمين الله وحميد الله لزيارة قبر والدهما... كان أمين الله يسألني:

- جدتي، أهنا يرقد والدي؟ أراك تبكين كثيراً... لا تبكي يا جدتي، فعندما أكبر سوف أشتري لك كل شيء؛ الحلوى والبالونات والسترات والملابس... وعندئذ سَيَسْعَدُ والدي كثيراً.. أليس كذلك يا جدتي الحبيبة؟ لقد قال القائد إنه سيعطيني بندقية والدي عندما أكبر... جدتي، إنني سآكل كل طعام، فأنا أريد أن أكبر بسرعة ويصبح لي شارب ولحية، وأقتل الأعداء، تماماً مثلما يفعل القائد في الجبهة، أليس كذلك يا جدتي؟!.

وبعد أسبوع غادَرْتُ الجبهة وسط دموع عيني. اتخذتُ طريقي مع حفيديَّ تاركة قلبي في قريتي عند قبر ابني.

قرر المجاهدون أن نتحرك إلى باكستان عبر طريق (بارشِنار). كان صعباً عليّ وأنا امرأة عجوز أن أقطع طريقاً طويلاً كهذا، سيراً على الأقدام. الحقيقة أن المجاهدين - سلّمهم الله - كانوا يحملون حفيدَيَّ، بل إنهم لم يتركوا لي الفرصة لأحملهما. كان أمين الله دائم التساؤل؛ إلى أين نحن ذاهبون؟. وكان المجاهدون يوضحون له أننا ذاهبون إلى باكستان. ثم بدأ يسأل أسئلة جديدة، وكانت أسئلته تضحكهم. وخلال إحدى تساؤلاته وهو بين ذراعَيّ أحد المجاهدين، أدار وجهه ناحيتي، وسأل بصوت عال:

- جدتي، جدتي، هل ذهب والدي أيضاً إلى باكستان؟...
آه... بماذا نجيب؟ لم نكن ندري.

* * *

الطُّرُق... الطرق... ليتها الطرق الطويلة التي لا تعرف النهاية أبداً... أيتها الجبال المنحدرة التي يصعب اجتيازها... من يدري هِجْرَةُ كم ألف من البشر شاهدتِها، لابد أنك ستشهدين عودتهم ذات يوم، يملؤهم شوق العودة إلى بلادهم، وقد أَتَمَّ الله نوره إن شاء الله.

* * *

توقفنا في المكان الذي يسميه المجاهدون (الميدان الأبيض). بدأ دخول الليل. جلستُ على الأرض وأسندتُ ظهري إلى أحد الأحمال، ناظرةً إلى حفيدَيَّ الجالسَيْن أمامي على الأرض، يأكلان بشهية خُبْزَ التنور الجاف.

كان المكان الذي نجلس فيه عبارة عن قمة جبل. وكان الهواء قارساً، شديد البرودة. أوْقَدَ المجاهدون ناراً أمامي مباشرة؛ فاتجه حفيداي ناحية النار وهما يتضاحكان، بينما قام أحد المجاهدين بوضع الحجارة التي جمعها حول النار، ووضعَ فوقها وعاءً، ثم سكبَ فيه كل الزيت الذي في الكيس

البلاستيك، وبدأ في تقطيع حبّات الطماطم - التي في قاع الكيس - على حافة الوعاء... فنَهَضْتُ من مكاني، ودنوتُ منه أسأله:

- هات يا بني، أنا أقطّعه،... ماذا تطبخون.

ابتسم المجاهد، ومد إليَّ السكين والطماطم التي في يده قائلاً:

- تفضلي يا أمي، قلنا نحمر الطماطم قليلاً في الزيت، ثم نعمل شيئاً مثل الشوربة.

قال هذا ثم ابتعد...

قطَّعْتُ الطماطم في الوعاء، ثم رفَعْتُه على النار، بعد أن وضَعْتُ عليه الملح والفلفل الأخضر، واصْطَفَّ المجاهدون لصلاة العشاء... كانوا يصلون بعيداً عني بمسافة كبيرة، وصلَّيتُ أنا أيضاً، ثم جلستُ بجوار النار، وغفوتُ. خُيِّل إلي أنني أسمع حديثهم خلفي، فتَلَفّتُّ، فلم أرَ أحداً. قلتُ لنفسي: ربما أخطأتُ السمع... سمعتُ هذه المرة، بكاء طفل وكان هناك من يسكِتُونه بالقوة... انفعلتُ، فحفيداي يغطان في النوم، وليس هناك أطفال آخرون. أثناء ذلك كان المجاهدون يتقدمون ناحيتي، ويواصلون حديثهم... فوقفْتُ وأنا أتَلَفَّتُ حولي في حيرة، صاح بي القائد:

- أمي، هل نضج حساؤنا؟ يحسن أن نشربه ساخناً.

أجبته:

- جاهز يا بني.. وهنا أيضاً من يستعدون حولنا.

نظر المجاهدون والدهشة تعلو وجوههم، فأشرتُ بيدي إلى المرتفع خلف المكان الذي أقف فيه، وقلتُ:

- أسمع أصواتاً تأتي من هذه الناحية.

أشار القائد بيده أن اصمتي، وأشار إلى المجاهدين بالكلاشينكوف التي في يده، وأومأ برأسه كأنه يقول لهم: اتبعوني. وتقدّم ببطء ناحية المرتفع الذي أشرتُ إليه. كان المجاهدون متحمسين، بينما ذهبتُ أنا ناحية حفيدي، تُرى، من هناك؟. صاح القائد قائلاً:

- مكانك حذار أن تتحرك... سأضرب.

أمْسَك اثنان من المجاهدين برجل من ياقة ثوبه، وانهالا عليه ضرباً... يا إلهي، إنه روسيّ. كان القائد يضربه بكعب البندقية، بينما الروسيّ ينكمش على الأرض، ومجاهد آخر يتساءل:

- شيء محيّر... مالذي أتى بهذا الروسيّ إلى هنا؟!.

في هذه الأثناء رأينا امرأة تُقْبِل مسرعة من خلف

الربوة، وتلقِي بنفسها فوق الرجل الممدّد على الأرض، وهي تصرخ... تملكتنا الدهشة... كانت المرأة تبكي، وفي الوقت نفسه تصيح:

- أتضربونه. أستحلفكم بالله ألاّ تضربوه. نحن أيضاً مجاهدون.

رفعَت المرأة رأسها تَتَلَفَّتُ حولها. كانت صغيرة السن، وتشبه أهل الجنوب عندنا... نظَرَتْ إلينا بعينيها الدامعتين، ثم أَخَذَتْ تهز الرجل الممدد على الأرض، وهي تبكي وتردد:

- عبد الأحد، عبد الأحد... ماذا أصابك؟ كان القائد يرمق المرأة في دهشة. رفع أحد المجاهدين وجه الرجل الممدد. كان وجهه غارقاً في الدماء. كان فتى شاباً في حوالي السابعة عشرة، وقد تخضب شعره الأصفر بالدماء، كان قريب الشبه بالمرأة التي بجواره.

أطلَقَت المرأة صرخة أخرى وهي تبكي وتصيح:

- قتلتموه... قتلتموه أيها الظالمون! لقد قتلتم واحداً من أهلكم... هيا اغربوا عن وجهي.. هيا اذهبوا.

وملأ المكان صوتُ بكاء طفل، فانْطَلَقَت المرأة من مكانها كالسهم، وجَرَتْ ناحية الصوت القادم من خلف الربوة،

وتبعها القائد واثنان من المجاهدين يستوقفانها. وجريتُ أنا أيضاً وراءهم، بينما المرأة تبكي وتصيح:

- اتركونا بالله عليكم، نحن لم نقترف ذنباً.

وهناك... خلف الربوة الترابية، كان ثلاثة أطفال يبكون في صوت واحد، ويرتعشون من شدة البرد. أحدهم صبي في الثامنة، والآخر طفلة صغيرة في السادسة، وطفل آخر صغير في قماطه، يبكي بصوت عالٍ. أخذ القائد يهدئ من روعها بقوله:

- لا تخافي... فنحن مجاهدون. لكن ما الذي أتى بكم إلى قمة هذا الجبل؟! ومن يكون هذا الروسيّ؟. اقتَرَبْتُ من المرأة، وجَثَوْتُ إلى جوارها أُطَمْئِنُها:

- هدِّئي من رَوعك يا بنيتي... تمالكي نفسك نحن لسنا غرباء. هيا انهضي. أَقَتْل هؤلاء الأطفال تريدين!! هيا انهضي واطمئني. أما هذا الشاب فيبدو أنه مغمى عليه وسيفيق الآن... هيا انهضي.

حدَّقَتْ فينا المرأة وعيناها تقدحان شرراً، بينما اصطَحَبَتْ الطفلين... يا ربّ... ما هذا!! كأنهما تجمّدا من قسوة البرد. كانا يرتجفان ويبكيان. التَفَتُّ إلى القائد أنبِّهُهُ أن الطفلين يوشكان أن يموتا من شِدّة البرد. أفاق القائد من دهشة الموقف، واقتربَ من المرأة قائلاً:

- قلنا لك هيا انهضي. أتودين قتل هؤلاء الأطفال!! هيا انهضي. نحن لا نعرف من يكون هذا الفتى، ولا ماذا أصابه. لكن ما ذنب هؤلاء الأطفال؟! هيا انهضي.

كانت المرأة تحدِّق في القائد حائرة، مُطْبِقَة بذراعيها على طفلها الصغير. ثم وَقَفَتْ. بينما احتضن اثنان من المجاهدين طفليها الآخرين، ورجعنا كلنا إلى مكاننا، حيث كان بقية المجاهدين في انتظارنا، بينما الفتى ما زال راقداً على الأرض مغشياً عليه. فصاح القائد:

- هيا.. أشعلوا النار بسرعة، واغسلوا وجه هذا الفتى بالماء الساخن.

أَجْلَسْنا المرأة والأطفال على مقربة من دفء النار، بينما المرأة مستمرة في نحيبها الصامت، والأطفال يرتجفون من شدة البرد. جَثَوْتُ بجوار الفتى، أُنَظِّفُ وجهه من آثار الدماء. وساعدني أحد المجاهدين في هذا. أخرج القائد بعض المتاع، واقتربَ من الفتى. فأخَذْتُ منه بطانية وفَرَشْتُها على الأرض، وأرقدوا الفتى بجوار النار، ثم حقن القائد ذراع الفتى بدواء، فتلوى الفتى من الألم. فشكرتُ الله أنه ما زال حياً. بدأ الفتى في استرداد وعيه، بينما المجاهدون مستمرون في تغذية النار، والمرأة الشابة تتابع ما يدور أمامها، بعينيها الدامعتين. وبعد

نصف ساعة، كان الفتى قد استرد وعيه تماماً، وبدأ يتلفت حوله... آه يا ربِّ، إنَّه يشبه الروس تماماً.

نظر الفتى إلى الجالسين حوله في صمت، ثم انطلق صوت القائد:

- أيتها الجدة، بَرد حساؤنا... ألا أحضرته لنشربه سوياً. فرفعْتُ الإناء على النار حتى سخن، ثم وزَّعْتُ ما فيه على المجاهدين. كنا خمسة أو ستة أشخاص حول طبق واحد. قطَّعنا خبز التنور البارد الذي معنا ووضعناه في حساء الطماطم... وبدأنا نأكل. وَضَعْنا طبق حساء أمام الفتى، وساعده أحد المجاهدين في تناوله، فقد كان الفتى عاجزاً عن تحريك يده.

جَلَسَتْ الشابة وطفلاها ينظرون إلى وعاء الشوربة الذي أمامهم، دون أن يَقْرَبوه، فقلتُ للمرأة:

- هيا يا ابنتي، اشربي الحساء وهو ساخن، فأنت متعبة مثلنا.

فأقبلَت المرأة والأطفال على طبق الحساء، وبين طرفة عين وانتباهتها، صار الطَّبق فارغاً تماماً. أدركتُ أن الأطفال ما زالوا جائعين، فقدَّمْتُ لهم نصيبي من الحساء، وقد صرت بالفعل لا أريد أن أشرب مِنه. فشربوا هذا أيضاً، ولعقوا

الطَّبق. كان القائد يرقبهم وهم يشربون الحساء. ولما لاحظ أنهم ما زالوا جائعين، قدَّم لهم الطبق الذي أمامه هو ورفاقه، فأرادت الأم أن تعترض وهي خجلى بقولها:

- كفى، فقد شبعنا، بينما أنتم جائعون.

وبرغم اعتراضها، كانت جائعة. فشَرِبَتْ من الحساء مرة أخرى، وكان الفتى لا يقل جوعاً عن المرأة، فقدمنا له الحساء المتبقي في الإناء.

* * *

انتهى الطعام، والتف الجميع حول النار، واستغرق كل واحد فيما يشغل فكره. كان الفتى ملفوفاً في البطانية، وينظر ناحية النار مستغرقاً... فسأله القائد:

- تُرى، كيف حالك الآن؟.

رفع الفتى رأسه وقال:

- الحمد لله يا سيدي القائد. فسأله القائد:

- أما وقد استرحتَ الآن... ألا توضح لنا ما الذي أتى بكم إلى هنا؟ ومن أين حصلْتَ على هذا المعطف العسكري الروسي الذي ترتديه؟!.

امتقع وجه الفتى من الخجل... وأطرق برأسه، وبدا مستغرقاً في التفكير وهو ينظر ناحية النار، ثم بدأ يحكي حكايته، بينما المرأة تبكي بكاءً مكتوماً، وكان الأطفال الثلاثة قد استغرقوا في النوم منذ حين.

* * *

قصة الفتى...

نحن من بلدة (مَزار شَريف). أجدادنا في الأصل مجاهدون من (بُخارى). وأنتم غير مخطئين في تشبيهي بالروس، لأني قريب الشبه منهم بالفعل. عندما ضرب الروس قريتنا بالقنابل، صعدنا إلى الجبل، وأقمنا فيه مدة سنة كاملة. ثم نزلنا إلى القرية وحررناها من الروس. أمّا هذه المرأة الشابة، فهي أختي الكبيرة... زوجها مجاهد في جبهة مزار الشريف المركزية.

دمَّر الروس قريتنا أثناء غارتهم الثانية عليها... وسوَّوها بالأرض. وفقدْتُ في الغارة كل أفراد عائلتي: أمي، وأبي، وإخوتي، وأخواتي، وأقرب أقاربي كلهم استشهِدوا، ولم يبق على قيد الحياة سوى أختي هذه وأطفالها الثلاثة، فهربنا إلى الجبل تحت جُنح الظلام... كذلك لم ينجُ من القرية كلها سوى عشرين شخصاً فقط. وكان المجاهدون محزونين، فقد فقدوا عائلاتهم أثناء الغارة... لهذا بكى زوج أختي عندما رآنا أحياء أمامه عقب الغارة. وبقينا معه في الجبهة المركزية لمدة شهر... بعده قال لي:

– يا عبد الأحد، يجب أن تذهب أنت وأختك إلى باكستان.

إننـا نـخشـى أن تـقـعـوا في أسـر الـروس إذا بـقـيـتـم هـنـا، أمّـا نحن، فلا خوف علينا لأن هذه هي حياتنا... وقد اعتدناها. وجودكم هنا عبء علينا. أيُرضيكم أن تكونوا السبب في أن يُدمِّر الروس هذه الجبهة!!.

ثم اقترض من زملائه في الجبهة نقوداً أعطاها لنا لنسافر إلى باكستان.

سافرنا والخوف يملؤنا... فلم نكن قد غادرنا (مَزَار شَريف) من قبل أبداً. لم نكن نريد فراق بلادنا... لكننا رضخنا لإصرار زوج أختي. وخرجنا قاصدين باكستان بالرغم عنّا، والدموع تنهمر من عيوننا. خرجت مع أختي وأبنائها الثلاثة... بمفردنا. كان لابد من دفع رشوة لمن بيده أمر الحدود عند (طورخَم). كان زوج أختي قد رسم لنا خط السير في ورقة، وأفهمني كيف أتصرَّف. كان كل متاعنا عبارة عن صرَّتين. وبعد يومين وصلنا إلىَ (كابول) بالعربات التي سنهرب عليها إلى باكستان. وأقمنا في بيتٍ في العُنوان الذي وضَّحه لي زوج أختي. وفي اليوم التالي، استأنفنا سيرنا، وركبنا عربات الهروب مرة أخرى، وساعدنا في ذلك صاحب البيت الذي أقمنا عنده تلك الليلة. ووصلنا إلى مدينة (جلال آباد). وعند (طورخَم) دفعنا رشوة لذلك الخائن الذي

سيساعدنا في عبور الحدود. لكنه سلّمنا إلى الروس، الذين ألقوا بنا؛ أنا وأختي وأطفالها الثلاثة في السجن. واستمروا في ضربي والتنكيل بي ليعرفوا من أين نحن قادمون... وما هي وجهتنا... وما مقصدنا. ثم ألقوا بنا في عربة روسية مصفحة ليعيدونا إلى كابول مرة أخرى، بصحبة جندي روسي. وكان ذلك الروسي يتفاهم معنا بالإشارة، فأشار يسألنا إن كان معنا نقود، فأجبناه أن ليس معنا، فقال وهو يضحك:

- نقود... نقود... النقود ثمن لحريتكم. وأشار بيده أنه سيطلق سراحنا.

نظَرَت إليّ أختي في دهشة، وكانت آثار التعذيب الشديد الذي تعرَّضَت له بادية عليها، ثم قالت:

- إنها فرصتنا الأخيرة للهرب من أيدي الروس. فلنتوكل على الله العلي العظيم، ونعطيه الذهب البخاري الذي أُخبِّئُه؛ ذلك الذهب الذي أعطته لي أمي رحمة الله عليها عند زواجي. إننا سنفقده سواء أعطيناه له أم لم نُعطه، وسيأخذه منا في نهاية الأمر.

تملكتني الدهشة وسألتها:

- ألَمْ يأخذه منك أولئك الذين ضربوك في السجن؟!

قالت:

- لا، لأنني كنت قد خبأته داخل بطانة ملابسي وخيَّطتُ عليه. لقد أخذوا النقود التي كانت معي، لكنهم لم يعرفوا شيئاً عن الذهب إنه يساوي مبلغاً كبيراً. فلنعط ذلك الروسي قطعتين من الذهب البخاري، والله في عوننا.

وتابع الفتى يقول:

وبهدوء فَتَقَتْ بطانة ملابسها، وأَمسَكَت بقطعتين من الذهب البُخاري، وأعطتهما لي، ورَبَطَت باقي الذهب في غطائها. وهمستُ بانفعال إلى ذلك الروسي الغافل فرفع رأسه ونظر إليّ، فكلَّمته وأنا أتصور أنه يفهم كلامي:

اسمع، خذ هذا الذهب، وأوفِ بكلمتك. لكن حذار أن تخدعنا، لأننا عندئذ سنبلغ الأمر إلى قيادتك.

حدّقَ الروسي بغضب ومدَّ يده نحوي قائلاً:

- هات النقود.

مددت له القطعتين الذهبيتين البُخاريتين، فأخذهما وبدأ يُقلِّبهما بين يديه، وعلامة الدهشة تعلو وجهه، وقد اتسعت عيناه بأقصى اتساعهما من فرط الدهشة. تارة ينظر إلى الذهب، وتارة إلينا، وبدون وعي نطق بكلمة (بُخاري).

فقلت:

- نعم إنه ذهب بُخاري، معنى هذا أنك تعرفه.

ارتسمت على وجهه علامات الفرح، ولا أدري كم من الوقت مضى بعد هذا. ثم وقفت قافلة السيارات الروسية. كنت وأختي قد استغرَقنا التفكير والحزن يملؤنا. نتذكر.. كم بكينا. وكم جُعْنا وتعذبنا في تلك الأيام. كان الأطفال يبكون من شدة الجوع والتعب.

وفي فترة، غادر الروسي العربة، وتركنا بمفردنا داخلها، كان الليل حالك الظلام. وفجأة ترامى إلى سمعنا صوت سلاح، فتبادلنا - أنا وأختي - نظرات الأمل، وقالت أختي بانفعال:

- والله، إنهم المجاهدون. فقلت لها وأنا أرتعد من الخوف:

- أرجو الله أن يكونوا هُم.

قالت أختي:

إذا لم يُقَدِّر الله أن ينقذنا المجاهدون من أيدي الروس، فإنني أدعوا الله أن يقصف المجاهدون بصاروخ هذه العربة التي نحن بداخلها، وبذلك يُنجينا من عذاب السجن.

ملأ صوت السلاح المكان كله، حتى إننا نسينا أمر ذلك الروسي. أثناء ذلك، أشار لنا الروسي بالخروج من العربة، ونحن غير قادرين على التحرك. فأخذنا نرمقه بدهشة وهو يعض على نواجذه بغضب، ويأمرنا بمغادرة العربة. غادرنا العربة، أنا أولاً ومن ورائي أختي وأطفالها.

كانت الظلمة حالكة... وصوت السلاح وجري الروسي هنا وهناك، والهلع يملأ المكان. أثناء ذلك بالضبط، شبَّت النيران في شاحنة روسية. وتصاعدت منها ألسنة اللهب. كان الأطفال يصرخون في فزع، فاحتويناهم -أنا وأختي- في أحضاننا، ثم أشار لنا الروسي أن نختبئ خلف الدبابة. وعندما شبت النيران في شاحنة أخرى، تعالت صرخات الروس الذين بداخلها، وأخذوا يتدافعون للقفز منها طلباً للنجاة. وكل من ألقى بنفسه من الشاحنة، أصابته نيران المجاهدين. كانت قافلة الشاحنات طويلة بدرجة واضحة... لابد وأن الهدف بعد ذلك هو الدبابات.

رائحة الدم والنار تملأ المكان، بينما نحن حائرون فيما يجب أن نفعل. كنا نسمع صوت القذائف وهي تمرق من حولنا، وصرخات الأطفال المفزوعين من صوت السلاح المخيف، تضيف إلى ضجيج المكان ضجيجاً.

قُصِفت الدبابة التي نختبئ خلفها، وعلينا الآن أن نفعل شيئاً... النيران الناتجة عن احتراق الدبابات والعربات، والشاحنات، أضاءت المكان حولنا مثل النهار، وبالتالي صار الهدف واضحاً أمام المجاهدين.

كان الجندي الروسي - أثناء ذلك - ينظر إلينا وهو خائف. وفجأة، انطلق صوت من الجبال يطلب الهدنة، فتوقف المجاهدون عن الضرب، وتوقف الروس بدورهم. وساد السكون المكان، إلا من صوت العربات المحترقة، وصوت أنين الضباط الروس، والعملاء من الضباط الأفغان. أشار لنا الروسي الذي كان بجوارنا أن نتبعه، فاتبعناه. كنا نفعل مثلما يفعل. وتلمسنا طريقنا حثيثاً ونحن نزحف على الأرض، وقد خلَّفْنا وراءنا الدبابات المحترقة، بعد ذلك أطلق الروسي ساقيه للريح، ونحن نجري وراءه تماماً. وفجأة، ملأ المكان صوت مدفع رشاش. كانت طلقات المدفع تمرق من جانبنا، فسقط الروسي الراكض أمامنا على الأرض، وانبطحت أنا وأختي على الأرض، ثم توقف صوت السلاح. انحنيت على الروسي لأرى ماذا أصابه، فوجدته قد مات. فنظرتُ إلى أختي وهي تبكي... لَم نفكر أنه ستكتب لنا النجاة إذا تمكنا من اجتياز الطريق إلى الجانب الآخر. فالذين رأونا وأطلقوا علينا النيران كانوا من الروس.

كان الأطفال يصرخون من الفزع، ونزعت معطف الروسي الميت لألفّ به الطفل الصغير، وقلت لأختي:

- هيا، إنها كما قلت فرصتنا الأخيرة للهرب. كنا نرقد في منتصف الطريق وكأننا قتلى، ثم بدأنا نزحف ببطء. كنا نزحف خطوة أو خطوتين ثم نتوقف ونتمدد على الأرض كالموتى. آه ياربِّ... وبعون الله عبرنا إلى الناحية الأخرى من الطريق، ثم قلت لأختي:

- الحمد لله، لقد عبرنا... بقي أن نجري قليلاً لنصل إلى ما وراء تلك الربوة، وبذلك نكون قد نجونا. ثم قالت:

- هيا بنا، الله معنا.

نهضنا، وأخذنا نجري. جرينا لمدة نصف ساعة بغير توقف... والحمد لله، فقد نجونا. ثم قالت أختي:

- كفانا جرياً... فلنسترح قليلاً، فأنا أكاد أموت من شدة التعب.

فتوقفنا. وعندما أشرق الصباح، استأنفنا السير، وقطعنا طريقاً طوله يومان وليلتان سيراً على الأقدام. لم نكن نعرف ونحن وسط الجبال، إلى أين نسير. وبالأمس فتشتُ جيوب المعطف الذي أخذناه من الروسي، فوجدت فيه القطعتين الذهبيتين اللتين أخذهما منا، وكذلك متعلقاته الشخصية.

ونظراً لبرودة الجوّ، قررت ارتداء المعطف، فقد كان البرد شديداً، حتى إنني نسيت ممن أخذتُه. وقطعنا طريقاً طويلاً لمدة ثلاثة أيام بلا ماء أو طعام إلى هنا. وكانت قواي قد أنهكت تماماً، وأصبحتُ عاجزاً عن مواصلة السير. وقبل بضع ساعات، كنا نجلس فوق الربوة، وسمعنا أصواتكم، فاقتربنا. كنا خائفين من كل شيء.. من الناس، من الجبل، من الحجارة، من الطير، خائفين من كل شيء ومن كل صوت... كنا نترقب خوفاً من أن يكون في الأمر لصوص. جلست أختي مع أطفالها، وبدأتُ أنا في مراقبتكم. وعندما وقفتم للصلاة، كاد قلبي أن يتوقف من شدة الفرح. أردت أن أصرخ، لكن صوتي احتبس في حلقي... كنت حائراً من فَرْط السعادة. رجعت إلى أختي وأنا أجري، لكني لم أستطع أن أشرح لها ما رأيت. كانت أختي تنظر إليّ في دهشة. وعندما أردت أن أرجع إليكم مرة أخرى، قابلتكم. لكنكم ظننتم أنني روسي، فانهلتم عليّ ضرباً. وكنت من فرط الجوع والتعب، قد أُغشي عليّ، فلم أشعر حتى بضربكم.

حكى الشاب كل هذا، دون أن تُفارق الابتسامة شفتيه.

أخذ القائد والمجاهدون يتشاورون في الأمر فيما بينهم، بينما اقتربتُ من المرأة. كان الدم يسيل من قدميها، تكلمتُ معها وأنا أبكي:

- آه يا ابنتي، لقد تعذبتِ كثيراً.

فأجابت والدمع يفيض من عينيها:

- آه يا خالتي. ليت ما حدث قد أصابني وحدي. ابني الصغير، يبدو أنه يحتضر. ألقيتُ نظرة على الطفل الذي في القُماط، وأمسكت بيده... يا ربِّ: كانت ساخنة كالنار. وكان الطفل يئن من فرط الإعياء. فأدركتُ أن الصغير يعيش لحظاته الأخيرة، وكأن ما أدركته قد ارتسم على وجهي وقرأتْه المرأة، فقالت في خوف:

- أخبريني يا أمي، إنه يحتضر، أليس كذلك؟

- كلا يا ابنتي، إنه بخير؛ كل ما في الأمر أنه منهك من أثر الجوع والبرد. إن شاء الله سيتحسن بسرعة. توجه القائد إلى عبد الأحد يسأله:

- والآن، أخبروني، ماذا قررتم؟ أعني إلى أين وجهتكم؟

استدار الفتى ناحية أخته يسألها:

- نحن ذاهبون إلى باكستان، أليس كذلك يا أختي؟

أجابته:

- لكننا خائفون، كما أننا ضللنا الطريق ولا نعرف ماذا نفعل.

قال القائد:

- نحن أيضاً ذاهبون إلى باكستان. يمكنكم أن ترافقونا. هذا طبعاً إذا شئتم. فاطمأنّ الأخوان وقالا:

- أحقاً يمكننا مرافقتكم إلى هناك... الحمد لله.

* * *

أخبرتُ القائد أن الطفل الذي في القماط، مريض وحالته سيئة.

فقال:

- وماذا بيدنا. الأمل كله معقود على الله. لكن ربما نصل إلى باكستان بسرعة إذا أسرعنا الخُطى، وعندئذ يمكن إسعافه.

أوشك الصبح أن ينبلج. فصلينا الفجر، وتهيأنا لمواصلة السير. كان الفتى وأخته غير قادرَين على السير من فرط التعب. فكنتُ أحمل عنها الطفل الصغير من حين لآخر. بينما كان المسكين يحترق من شدة السخونة. تساءل الفتى عبد الأحد:

- أيها القائد الصاحب، هل أنتم الذين أطلقتم النيران على رتل السيارات في تلك الليلة؟.

أجاب القائد:

- لا، فذلك الموقع تابع لجبهة (جلال آباد) المركزية. ولاشك أن المجموعة التي أطلقت النار كانت تابعة لهم.

قال عبد الأحد:

- لكنا لم نلتَق بهم رغم أننا مشينا على الطريق لمدة ثلاثة أيام.

أجاب القائد والابتسامة ترتسم على وجهه:

- كان عليكم الانتظار، فبعد انتهاء القصف كان من الممكن أن ينزل المجاهدون لجمع الغنائم، وعندئذ كنتم تجنبتم كل هذه المشكلات.

توقفنا عن المسير أثناء الليل، ثم استأنفناه في الصباح. وفجأة صاح أحد المجاهدين قائلاً للقائد:

- انظر ماذا حدث لهذا الطفل!.

هُرعت أم الطفل، احتضنت صغيرها وهي تُبكي بحرقة. فانتزع عبد الأحد الطفل من بين ذراعيها، والتففنا كلنا حول الصغير. حقاً، إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة. وماهي إلاّ دقائق حتى أسلم الطفل الروح بين يدي القائد. أجهشت أمه في البكاء، ولم نتمالك أنفسنا، فبكينا معها كانت تبكي وتردد:

- يا ربُّ، ألهمني الصبر. أنت الذي وهبتني الطفل وأنت الذي استعدته. وبعد بضع ساعات، أودع المجاهدون الطفل الثرى في طريق الجبل، وكانت أمه تبكي بحرقة بجوار قبره. وعند مغادرتنا المكان، رفضَتْ الأم المجيء معنا، واحتراماً لمشاعرها، اضطررنا أن نقضي ليلة أخرى في المكان نفسه. وعند الصباح، واسيناها، وأقنعناها بالمضي معنا. كان الجميع محزونين. وكانت عينا أم الطفل الشهيد أكثر العيون دمعاً.

* * *

فرح أمين الله بأصدقائه الجدد من الأطفال، فضحك وسار معهم. وكنا إذا توقفنا عن المسير، تتنحى الأم الشابة جانباً، وتبكي بكاءً مريراً لا ينقطع حتى نستأنف سيرنا، فكنت أواسيها لأخفف حزنها.

وذات مرة كنت أجلس إلى جوارها أُسَرِّي عنها. فأقبل الجندي المناوب، وأبلغ القائد أن جنديين مسلحين قادمان ناحيتنا، فاستعد القائد والمجاهدون بأسلحتهم، وتقدموا إلى حيث أشار الجندي، وصاح القائد في مكبِّر الصوت؛ مخاطباً الجنديين المسلحين أن يلقيا سلاحهما أرضاً.

لم يكن بمقدورنا تبيُّن ما يجري لأننا نقف خلف ربوة عالية. فكرر القائد نداءه، وأصدر أمراً لعدد من المجاهدين

أن يأتوا بالجنديين، فأتوا بهما مستسلمين رافعين أيديهما إلى أعلى، بينما حمل مجاهدان آخران أسلحة الجنديين. فأمرهما القائد أن يُنزلا أيديهما. كان الجنديان منفعلين. قال أحدهما قبل أن يُنزل يده، وهو يلهث بأنفاس متلاحقة، ومتقطعة:

- لقد هربنا، هربنا، نعم لقد هربنا، الحمد لله أننا التقينا بكم.

ضحك القائد والمجاهدون، بينما الجنديان ينظران إليهم في حيرة وسذاجة، وقد ارتسمت على عيونهما علامات الدهشة، ثم سألهما القائد:

أهلاً بكما، من أي مفرزة عسكرية هربتما؟ وكم عدد الهاربين؟

أنزل الجنديان أيديهما وهما ينظران إلينا، ثم تكلم الجندي الأول وقال بالحماس نفسه:

- لقد هربنا، نحن فقط. نحن الاثنان فقط: أنا وصديقي من (أردوق) لقد أخذونا بالقوة إلى التجنيد الإجباري. وخلال أسبوع واحد فقط، نقلونا من مدينة (جلال أباد) وألحقونا بالمفرَزة العسكرية الثالثة. وكان المجاهدون يُغيرون كل ليلة. لكن للأسف لم يصلوا إلينا مع أننا كنا نتوق لذلك.

آه، كنا ننتظرهم دوماً. كان الضباط الروس والعملاء من الأفغان يأمروننا بإطلاق النار من أبراج القلعة كل ليلة، بدون توقف. لكن كيف يمكننا أن نطلق النار على إخواننا؟! إن آخر ما أوصتني به أمي وهي تبكي، عندما جاؤوا ليسحبوني قهراً إلى التجنيد الإجباري:

- إياك يا بني، إياك أن تطلق ولو رصاصة واحدة على إخوانك المجاهدين. واعلم أنني لن أسامحك إن فعلت. أوصيك أن تهرب في أول فرصة تلوح لك. واحرص أن تكون أنت وإخوانك المجاهدين يداً واحدة. ولا تخش شيئاً، فالله معك وأنا أدعو لك. إياك يا بني. تذكّر دائماً وصيتي لك ولا تيأس واصبر، إن الله مع الصابرين.

كنا نطلق الرصاص كل ليلة في الهواء، وكانت كل تحركاتنا تحت المراقبة؛ ذلك لأن الروس لم يثقوا فينا. فكانوا يجردوننا من سلاحنا، ولا يعطونه لنا إلا في الليالي التي يفتح فيها المجاهدون نيران أسلحتهم. وتنقلنا بين ثلاث مفرزات عسكرية، كنا نتحين الفرصة للهرب. أتظنون أننا نحن الاثنان فقط اللذان كنا نترقب ونتطلع إلى هذا! كلا، فالجنود كلهم كانوا يترقبون مجيء المجاهدين. بل إن بين الضباط الأفغان من يترقب أيضاً مثلنا. ورغم أننا لم نتكلّم فيما بيننا في هذا

الشأن خشية أن يحاكمونا بتهمة الخيانة، كنا نقرؤه في وجوه بعضنا بعضاً، ولا نملك سوى الصبر والانتظار.

ومساء أمس، كنت وصديقي وثلاثة جنود آخرين مناوبين في برج القلعة. وكان أولئك الثلاثة يتهامسون فيما بينهم بشيء ما. كان ثلاثتهم من (كابول) وسألني صديقي:

- تُرى عمَّ يتهامسون؟! أتوقُ لمعرفة ما يدور بينهم. أشعرُ بعدم ارتياح... ولماذا لَم يفتح المجاهدون نيرانهم هذه الليلة،... متى يأتون!.

فقلت له:

- اسكت أيها الأبله. لقد أدركت كُنهَ الأمر.

فنظرَ إليّ في دهشة، ثم بدأ يردد أغنية قديمة، ورويداً رويداً؛ تظاهر بالاستغراق في النوم. ثم تظاهرت أنا أيضاً بالنوم. وبعد بضع دقائق أيقظني واحد من أولئك الثلاثة وهو يهمس:

- يا أنت، انتبه إليّ يا أخي، لقد قررنا الهرب الآن. ما قولكما؟ أتهربان معنا؟. تصنَّعتُ الدهشة لسماع قوله هذا، بينما تظاهر صديقي أنه استيقظ من النوم، ونظر إلينا وكأنه يتساءل عمَّا يحدث. فقلت في حدة مفتعلة:

- ماذا تقول أيها الكاذب! أتود أن تُعرِّضنا للإعدام رمياً بالرصاص؟

قال الرجل في غضب:

- يا لكما من أحمقين معتوهين. سيُغِيرُ المجاهدون على القلعة ليلة الغد. ولن يلتفتوا إلى دموعنا. ثم؛ أتظنان أنَّ الهرب أثناء تلك الجَلَبَة سيكون أمراً ممكناً؟! هيا، انهضا، لا داعيَ للتردد.

فقلت له:

- إذا كنت عازماً على الهرب فاهرب. لكن ما شأننا نحن بهذا؟.

قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة:

- مع الأسف، لقد ظننت أنك واحد منَّا. ومهما كان الأمر، فقد قررنا الهرب. أستودعك الله.

قال هذا ثم زحف ناحية صديقيه اللذين كانا في انتظاره. كان كل منا ينظر إلى الآخر، ولا أعرف لماذا لم أطمئن لهم.

كان هؤلاء الجنود الثلاثة قد ربطوا من قَبل حبلاً في حديد البرج. فبدؤوا في الانزلاق عليه بهدوء إلى أسفل، واحداً تلو الآخر. انزلق اثنان منهم ثم التفت الثالث ناحيتنا وهزَّ

يده لتحيتنا بغير أن يتفوّه بكلمة واحدة.

كنت وصديقي ما زلنا واقفين في مكاننا ننظر إليهم في دهشة استغرقتنا. وبعد بضع دقائق، استعدنا انتباهنا، فقال صديقي:

- هيا بنا أيها الأبله لنلحق بهم. أجبَبْتُه وأنا ما زلت مندهشاً:

- مستحيل!!! فصاح قائلاً:

- ما دام الأمر كذلك، فأطلق النار إذَن وأعلن أنهم هربوا.

قلت:

- ماذا؟! أتظن أنني وضيع إلى هذا الحد!.

فاستطرد صديقي قائلاً:

- إذَن، عندما يسألونك عن أمر هروبهم، قُل إنك لا تعلم شيئاً عن هذا الأمر، أليس كذلك؟.

كنت أنظر إليه وهو يتكلم وأنا غارق في الحيرة. ثم استعدت انتباهي كاملاً، وفكرت والأسى يملؤني:

- ماذا لو كان هؤلاء الثلاثة يخدعوننا؟ وماذا لو أطلقتُ

النار الآن وأعلنت عن هروبهم، ثم اتضح بعد ذلك أنهم منّا؟ آه يا ربٌّ، كيف أتصرَّف؟؟ أنا بين طريقين ولابد أن أختار أحدهما.

التفتُّ إلى صديقي قائلاً:

- اسمعني، مهما كان الأمر فالشهادة في انتظارنا في كلا الطريقين. هيا بنا لنلحق بهم.

فعانقني قائلاً:

- هيا بنا يا صديقي الشجاع. توكلنا على الله. هيا.

تحركنا من مكاننا بهدوء، وحملنا الكلاشينكوف فوق أكتافنا، وتقدمنا ناحية الحبْل الذي ما زال معلقاً في مكانه، وكأنه في انتظارنا. تعلَّقْتُ بالحبل ومن ورائي صديقي، وانزلقنا إلى أسفل القلعة. الظلام يلف المكان... والسكون مطبق... يا لحالنا إذا رآنا أحدهم من البرج الآخر! كانت الأشجار تحيط بموقع المفرزة العسكرية وكأنها غابة من الغابات. كنت وصديقي نجري بأقصى سرعتنا، وبدون أن نتبادل كلمة واحدة... كنا نجري ونحتمي بالأشجار، ونتوقف من حين لآخر؛ نُرهف السمع فيما حولنا.

وفي فترة سألني صديقي:

- أتعرف إلى أين نحن ذاهبان؟ احذر أن نلتقي بمفرزة عسكرية أخرى.

أشرتُ إليه أن يصمت. كنا منفعلين. نهمس ونحن نختبئ بين الأشجار. وفجأة لاحت أمامنا بضع خيالات لأشخاص وسمعنا مَن يأمرنا بالتوقف، فوقفنا، وقال صديقي:

- يا للمصيبة، مقبوضٌ علينا لا مُحالة.

أردتُ أن أمسك بندقيتي التي فوق كتفي، لكن فات الوقت. تقدم أحدهم منا وقال:

- ها أنتما ذا لحقتما بنا. أتصدقان، كنا نتوجس خيفة منكما، فقد ظننا أنكما تراقباننا.

اندهشنا، إنهم الأصدقاء الثلاثة الذين سبقونا إلى الهرب. وقال آخر:

- اسكتوا. هيا بنا من هنا. لقد أصبحت النجاة قاب قوسين أو أدنى. ها هو ذا الطريق المرصوف.

أسرعنا نحن الخمسة، بدون أن نتبادل كلمة واحدة. كان أصدقاؤنا الكابليون يحملون الكلاشينكوف مثلنا. قال أحدهم:

- ها هو ذا الطريق المرصوف. الحمد لله لقد نجونا. هيا بنا نعبر الطريق ثم نصعد الجبل.

انبطحنا في مكاننا استعداداً لاجتياز الطريق زحفاً. وزحفنا حتى بلغنا الجانب الآخر من الطريق. ثم مشينا داخل الغابة بمحاذاة أسفل الجبل. قال أحدهم:

- أرى أن نمضي من هذه الناحية.

فقلت:

- لا، بل من تلك الناحية. فهذه الناحية قريبة من مدينة جلال آباد، ومحتمل وجود مفرزات عسكرية على ذلك الطريق.

تحاورنا كثيراً لنختار أي الطريقين نسلك. وفي النهاية قالوا:

- لقد نجونا بفضل الله، لكن الحذر أمر واجب. سنسلك نحن هذا الطريق الذي دلّنا عليه المجاهد الذي اتفقنا معه.

لسبب ما لم نذهب معهم. فتعانقنا، وافترقنا. وسار كلٌّ منّا في طريق. ومشينا نحن في الطريق الذي ارتأيناه بغير توقف، إلى أن التقينا بكم.

* * *

وبعد ساعة، كتب القائد شيئاً في ورقة، وأعطاها هذين الجنديين، قائلاً:

- هيا.. الله معكما. لقد رسمتُ لكما في هذه الورقة مكان أقرب جبهة. قدِّما هذه الورقة إلى الزميل القائد هناك، وأقرئاه السلام، ولا تنسيا أن تُبَدِّلا ملابسكما العسكرية هذه، وأيضاً فكِّكَا الكلاشينكوف التي معكما، وضعاها في هذا الكيس، فمن المحتمل أن يقطع اللصوص طريقكما. كونا على حذر ويقظة، ولاتَثِقا في أحد قط.

نفَّذ الجنديان تعليمات القائد، وأخذا الورقة، وعانقا المجاهدين، ثم أخذا طريقهما واستأنفنا نحن سيرنا.

* * *

يا إلهي، ما أكثر ما رأيت في هذه الأيام المعدودة. مهلاً يا نفس. تريَّثي، فما أكثر ما تخبئه الأيام. الطُّرُقُ... الطرق... الطرق لا تنتهي... كنت أظن أنني سأموت من فرط التعب. ثم تلوح في مخيلتي صورة ابني الشهيد، فأُحدِّث نفسي؛ آه، ليته ما زال حياً. مَن يدري، تُرى سيقدَّرُ لي أن أشاهد قريتي مرة أخرى!!! آه، كم هو مفعم بالألم هذا القلب؟!. كنت أرى في منامي طوال الليل، أنني أتجوَّل هناك... في قريتي. أرى أنني هناك في حقلنا، وابني ينظر إليّ من فوق الربوة. آه، يا قريتي الجميلة، يا قريتي، يا حبيبتي، ما أسرع افتراقي عنك. لماذا جئتُ إلى هنا؟

ولماذا لم أبقَ هناك؟ ليتني استشهدتُ بين أحضانك، عندئذ كنت سأُقرُّ عيناً.

* * *

دخلنا (بارا شِنار) بعد يومين من المسير. لم أكن أنام أنا والمرأة الشابة والأطفال سوى جزء من الليل. وبعد بضعة أيام، سألتني:

- من أين أنت يا أمي؟. حكيت لها قصتي كاملة. كانت تسمعني، وهي تبكي بحرقة، وبعدها انخرطنا في البكاء سوياً. قالت لي وسط نحيبها:

- إن هذا ما قدّره الله علينا. الحمد لله إننا مؤمنون. لكني أتساءل دوماً؛ لماذا حلَّ بنا كل هذا؟ لابد أننا اقترفنا ذنباً كبيراً، أليس كذلك يا أمي؟ فالمهاجرون من القازاق والتاجيك والأوزْبَك، كانوا يأتون في أعراسنا، وكنا نراهم، ينتحون جانباً ويجلسون معاً والحزن يملؤهم. كنت صغيرة آنذاك، وكنت أتأمَّلُ ملابسهم وطريقتهم في الجلوس، وكلامهم، ووجوههم التي لاتبتسم أبداً... وأتساءل بيني وبين نفسي عن سبب كل هذا الحزن الذي يرتسم على وجوههم... لماذا لا يضحكون أبداً؟ بعض نسائهم كن يتكلمن مع أمهاتنا وخالاتنا عن قراهن وبلادهن الجميلة، وكنت أستمع إليهن وأتساءل:

- ما دامت بلادهم بكل هذا الجمال، لماذا إذن تركوها وجاؤوا إلى هنا؟! كان يجب عليهم أن يكلمونا عن سبب مجيئهم. كان يجب أن يوضِّحوا لنا السبب. ويقولوا لنا: خذوا العبرة من حالنا، أليس كذلك يا أمي؟. لقد أخطأنا، وها نحن وحدنا ندفع ثمن أخطائنا. نعم يا أمي، نعم، صدِّقيني.

* * *

مع خيوط الصباح الأولى، ركبنا إحدى الشاحنات المتجهة إلى (بيشاور). كنت أفكر؛ تُرى هل سأعتاد حياتي الجديدة في بيشاور. أشعر أنني أبدأ حياة صعبة. فامرأة عجوز مثلي ماذا تفعل هناك؟ وكيف تدبر طعامها هي وحفيداها الصغيران؟ لكن لم ينقطع الأمل في الله العلي العظيم. وكنت أُعَزِّي نفسي بأن من هاجر في سبيل الله إلى أي مكان على وجه الأرض، سيحفظه الله ويرزقه رزقاً واسعاً. ومن يخرج من بيته مهاجراً في سبيل الله ورسوله، ثم يُدركه الموت، فإن أجره على الله. إن الله هو الرحمن الرحيم.

ما أن شاهد أمين الله الزحام في بيشاور، حتى تهلل فرحاً، وانطلق يجري هنا وهناك مردداً:

- ويّ، ما كُل هذا الزحام!!؟.

أجلسنا القائد مع امرأتين، إلى جوار حائط. ومضى مع المجاهدين إلى مكان ما، ثم رجع بعد حوالي ثلاث ساعات ومعه عبد الأحد. قال عبد الأحد لأخته:

- هيا انهضي، سنذهب الآن.

فسألَتْه بصوت حزين:

- إلى أين.

فأجابها:

- إلى معسكر المنصورة. سنَبْلُغه بعد يوم واحد.

فسألته امرأة وهي تومئ إلينا:

- وهؤلاء، هل سيذهبون معنا؟.

قال القائد: كلا، هؤلاء سيذهبون إلى معسكر الأرامل.

انخرطَت المرأة في البكاء، وعانقتني قائلة:

- شاركيني البكاء يا أمي. ابْكِي معي، فقد آن لنا أن نفترق، ومن يدري؛ قد لا نلتقي مرة أخرى. ماذا سأفعل يا ربِّ في ذلك البلد الذي لا أعرفه، ولا أعرف فيه أحداً؟.

كنت أبكي بدوري، لكن علينا أن نصبر. وتوادعنا وذهب كل منا في طريق. قلت للقائد:

- يا ولدي، لقد أرهقتُكم. وإني لأدعو الله أن يحفظك ويرضى عنك.

ابتسم القائد وقال:

- أمي، لا تقولي هذا، فهذه هي وظيفتنا. اشكري الله أننا خرجنا من هذا السفر الطويل بلا خسائر.

فسألتُه في حياء:

- لكن، قل لي، ماذا عن معسكر الأرامل هذا؟ ومع من سنعيش هناك؟.

قال القائد:

- يا أمي، معسكر الأرامل عبارة عن معسكر صغير داخل معسكر (ناصر باغ)، تقيم فيه النساء اللاتي لم يبق لهن عائل في الدنيا. يعشن هناك بالمساعدات التي يقدمها لهن (الاتحاد الإسلامي) وحكومة باكستان؛ قَلَّت هذه المساعدات أم كثُرَت. وقد راسلتُ المكتب الرئيس بشأنك فقرروا إرسالك إلى معسكر الأرامل. اصبري يا أمي وادعي الله، فذات يوم ستنتهي غُربتنا هذه ونعود إلى بلادنا... في معسكر الأرامل آلاف الأمهات اللاتي استشهد أبناؤهن مثلك. وتعيش أيضاً الأرامل والأيتام، وستنسين بينهم آلامك. ولا تنسي يا أمي أننا أيضاً أبناؤك.

وصلنا معسكر الأرامل بعد ساعات. وداخل المعسكر قادتني شرطية باكستانية إلى خيمة خالية.

ودّعنا القائد ثم مضى وعيناه مغرورقتان بالدموع، وأنا أدعو له. أحسست حين مضى أنني فقدت ابني للمرة الثانية، وجاهدت نفسي حتى أمنعها من البكاء. وبعد وصولي إلى الخيمة، ما هي إلاّ دقائق وكانت الخيمة قد امتلأت بالنساء. كل واحدة منهن تسألني سؤالاً: من أين أنا؟ ومن يكون هذان الطفلان؟ وهل هما أيضاً يتيمان؟ أمَّا الآن فقد اعتدنا الحياة في معسكر الأرامل. أحياناً يملؤني الإحساس أنني وُلِدتُ وتربيت هنا. وماذا في هذه الدنيا لا يعتاده الإنسان!!؟.

* * *

ضيوف غير مُتَوقَّعين

كان الوقت قبيل الظهر، والهواء بارد جداً، عندما سمعنا عدة طرقات متتالية على باب البيت. اتجهَت عائشة ناحية الباب وسألت:

من الطارق؟!. فلم تسمع رداً. انتظَرَتْ عائشة خلف الباب بينما انتبهنا، أنا وأمي، انتباهاً شديداً. ثم انطلق من الخارج صوت هينمة يقول:

- يبدو أن لا أحد بالداخل، أو أننا طرقنا باباً آخر. أغلب الظن أن هذا البيت غير الذي نقصده.

فأجابه صوت رقيق:

- كلاّ، بل هو. لقد جئت إلى هنا عدة مرات السنة الماضية.

وانطلق صوت امرأة غاضبة:

- هيا إذن واطرُق الباب مرة أخرى، ربما يكون أحد بالداخل.

بدا لعائشة أنها تعرف هذا الصوت، ففتحت الباب فتحة ضيقة، ونحن في حالة ترقُّب. ثم صاحت بصوت يملؤه الانفعال:

– أمي، إنه توحيد وأسرته، لقد جاؤوا!.

وكانت مفاجأة. أحياناً يعجز الإنسان عن التصرف في مثل هذه المواقف، فلا يعرف ماذا يفعل... تسمَّرتُ في مكاني. لم أتحرَّك؛ وأنا أنظر إلى من يدخلون من الباب. دخل أولاً طفل في الثامنة من العمر؛ اسمه محمد توحيد، واتجه إلى الداخل مباشرة. كان التراب يغطيه من قمة الرأس إلى أخمص القدم. كان وجه توحيد يبدو ذابلاً، وقد اكتسبت بشرته لوناً أسود. كما كان جسمه يبدو ضعيفاً بدرجة تثير الدهشة. كذلك بياض عينيه؛ كان أصفر اللون. شفتاه بيضاوان بلون الجير. يا إلهي، كيف أصبح توحيد المسكين هكذا؛ جِلداً على عظم. كان على رأسه قلنسوة روسية. ثم دخلت امرأتان بالملاءة الأفغانية والنقاب. كانتا تبدوان في حياء شديد. كانت أمي تنظر إليهما وهي ما زالت واقفة في مكانها، وقد اكتسى وجهها صفرة خفيفة من المفاجأة... في النهاية استجمعت أمي نفسها، وتقدمت إليهما ببطء.. كشفت المرأة التي في المقدمة، النقاب عن وجهها، أخذت تتلفت حولها في قلق... نعم، لقد عرفتها. إنها أم توحيد... كانت ملامحها تنطق بالمعاناة التي تعرَّضت لها. وبرغم من هذا لم تنهد معنويَّاتها.. إنها امرأة قوية الاحتمال، فارعة الطول، شجاعة، يطل من عينيها حزن كبير، وحيرة. كانت تبدو

متعبة، وقد تأبطت تحت ذراعها الأيمن صُرَّة، بينما تدلى ذراعها الأيسر متصلباً بغير حراك، وقد ارتدت فيه قفازاً من القطن.. واسترعى انتباهي أنها تحرك ذراعها الأيمن فقط.

وقَفَت أم توحيد تتأمل المكان، وكأنها تتفرج على الجدران القرميدية المنخفضة الرطبة الندية.. وعلى الأرض المفروشة بقطع القرميد المكسور، وعلى الشجرة العتيقة التي تقف في ركن الفناء؛ وحيدة مثل الغريب. وتعلَّقَت عيناها بأمي الواقفة أمامها وقد امتلأت عينا أمي بالدموع. وتقدَّمت أمي ناحيتها بشكل تلقائي وعانقتها، فألقت أم توحيد الصرة من تحت ذراعها على الأرض، وعانقت أمي بذراعها الوحيدة وأجهشتا بالبكاء والنحيب.

كشفت المرأة التي تقف إلى الخلف عن وجهها، فتقدمنا إليها أنا وعائشة، ورحبنا بها.. كانت الابنة المكلومة لهذه السيدة... والبنت الوحيدة في أسرة مكونة من ثلاثة عشر فرداً، اسمها (قُمري كول). وهي فتاة طويلة القامة، ونحيفة إلى أقصى درجات النحافة... عيونها الحزينة تنظر دائماً ناحية الأرض في خجل. من فرط نحافتها، يبدو كأنها لا تقوى على السير. الأمر المدهش حقاً؛ كيف ينطوي هذا الجسم الضعيف على قلب عامر بمثل هذا الإيمان القوي!! كانت

الدموع تنهمر من عينيها بلا انقطاع. وفي نهاية الأمر، دخلنا بأمهاتنا إلى البيت، وهُنَّ في أقصى درجات التعب.

كانت الأم وابنتها تحملقان بدهشة في أرجاء الغرفة. ثم التفتت الأم، والدة محمد توحيد إلى أمي الباكية وقالت:

- لقد أرادهم الله يا أختي. في الأصل هم أمانة أودعها الله عندنا وقد استرد أمانته.

الشيخ محمد مُريد، أبٌ لبنت واحدة وأحد عشر ابناً... أحد عشر ابناً تضيء وجوههم بنور الإيمان، كأنهم كتلة من نور... وهو يشكر الله ليل نهار، ويتضرّع إليه أن يُعينه على تربيتهم، كما يحب ويرضى. ولقد استجاب الله العلي العظيم لدعائه، فهو الرحمن الرحيم الذي لا يضنُّ برحمته على أحد من عباده. وكان للشيخ مُريد دعاءٌ طويل يردده دائماً هو:

- اللهم يا واسع الرحمة والمغفرة، أعِنّي على تربية أبنائي، أمانتك التي أودعتني إيَّاها، ليعملوا في سبيلك وحدك، وينالوا رضاك وحدك. اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك من شرِّه. اللهم أعِنّي على تربيتهم ليكون كل واحد منهم مجاهداً، وكذلك ابنتي... اللهم امنحهم حياة عامرة بالإيمان.

كان بيت الشيخ مُريد يقع في سفح الربوة التي بها قائم

مقاميّة (كارغاي)، ياله من ترتيب إلهي!... قدَّر الله وما شاء فعل... فقد اختبر الله عائلة مُريد بأقسى ابتلاء. إذ إن عائلات القرية، ضاقت بالدروس الدينية التي يتلقّاها أبناؤهم في مدرسة الشيخ مُريد، وأخذوا يتبرَّمون منها. وكانت الأمهات الجاهلات يرددن:

إنه أمر مستحيل وغير معقول... ما معنى أن يُثقل الشيخ مُريد على الأولاد بكل هذا القدر من العلوم الدينية!! أيود أن يجعل من أولادنا فقهاء مثله؟!. وبالتدريج، امتَنَعنَ عن إرسال صغارهنّ إلى المدرسة، بعد أن امتلأت قلوب هؤلاء الصغار بنور الإيمان.

مضت سنوات على هذا، وكبر أولاد الشيخ. وأصبح ابنه محمد سيد مدرساً، ومحمد شهيد طبيباً، وأما بقية أبنائه فقد كانوا في المدارس الثانوية والمتوسطة والابتدائية. كان كل أهل القرية في غيِّهم يعمهون، إلا عائلة الشيخ مريد. فقد خلعت فتيات القرية حجابهن، وأصبحن أكثر سفوراً من فتيات المدينة. كن يتشدقن في مجالسهن بالتقدمية والتحرر، وبما حدثهن به إخوانهن ممن انتسبوا إلى الفكر الشيوعي. ما كن ينفرن من شيء في الدنيا مثل نفورهن من اللحى والملتحين.

حدّثتْ واحدة من هؤلاء البنات زميلاتها قائلة:

- نعم، لقد حدثني أخي الأكبر أن اللحية لم تعد مناسبة للعصر، وأن الناس في كابول يسخرون ممن يرتدي الشلوار[١]. وقال أيضاً:

- إننا نحن الفتيات قد تخلفنا كثيراً. وأطلعني على صور فتيات في غاية الجمال. إحداهن شعرها قصير. أؤكد أنكن لم ترين من قبل فتاة مثلها. وقال:

- إن هؤلاء الشيوخ هم سبب تخلُفنا. وأضاف قائلاً:

- انظري، إن بنات العائلات الغنية كلهن سافرات ومتعلمات. والشيوخ يتساهلون معهن ويغضون الطرف عن أخطائهن. في حين يجعلون من سفورنا نحن وذهابنا إلى السينما وتدخيننا السجائر إثماً كبيراً. وتقولون إن مأوانا جهنم... أليس تعليم القرآن عندهم له ثمن؟! والفتوى أيضاً لها ثمن؟! ويقول أخي أيضاً:

- إنهم سيقطعون دابر هؤلاء الشيوخ.

وكان من الطبيعي أن تردد الفتيات ما يدور بينهن. وقالت أخرى:

---

(١) الشلوار: اسم السروال الواسع الذي يلبس في أفغانستان والهند وباكستان تحت الثوب القصير المفتوح من طرفيه..

- حقاً، يقول أخي إن الآباء والأمهات ليس لهم الحق في تزويج بناتهم بالرغم عنهن. فأنت أختي، وإذا أحببت شاباً فأخبريني، وأنا أتولى حل المسألة مع والدينا. فأنا أعرف كيف أتصرف إذا اعترضا.

* * *

هذا عن البنات. أما الأبناء؛ فقد انقسموا بدورهم إلى ثلاث مجموعات: منهم من يتبع حزب الشعب، ومنهم البرشمي، ومنهم من ينتمي إلى حزب الشعلة الخالدة وهو حزب الصين الشيوعية[1]. وكلهم يحلمون بالثراء. فإذا دب بينهم الخلاف، دبروا المكائد وأوقعوا ببعضهم بعضاً. أحياناً يكونون على وفاق، وتدور أحاديثهم حول محمد شهيد، ومحمد سيد. وفي بعض الليالي يتشاجرون معهما، فينهالون سباً وشتماً في المدرسين الدينيين والمشايخ. وكانت إجابات محمد شهيد ومحمد سيد، علَى تساؤلاتهم، تزلزل كيانهم. وعندما يخلون إلى أنفسهم، ويتدبرون سبب عجزهم عن الرد عليهما، يقولون فيما بينهم:

(١) شهدت أفغانستان منذ أواخر السبعينيات وحتى أواخر الثمانينيات ثلاثة أحزاب يسارية أولها وأقدمها حزب الشعلة الخالدة الذي تؤيده الصين الشيوعية، والثاني حزب الشعب الديمقراطي (خلق) الذي أنشأه محمد نور تراقي، والثالث هو حزب برشم (العلَم) الذي رأسه بابراك كارميل، وكان السوفيت يدعمون هذين الحزبين الأخيرين.

- كيف عجزنا عن الرد عليهم؟! إننا أكثر منهما عقلانية وتقدُّميَّة. وحتماً سيأتي يوم نعرف فيه كيف نرد عليهم.

كانوا يقفون عاجزين أمام كلمة الحق. وبالرغم من عجزهم كانوا في ضلالهم سادرين. أما البنات، فكن يتحدين (قُمري كول) ويسخرون منها بقولهن:

- إنها بلهاء؛ فهي لا تغادر البيت مطلقاً. أتعرفن لماذا؟ لأن الخروج من البيت ذنب!.

وصل الأمر بالناس أن أطلقوا على قلعة الرحيم اسم (موسكو الصغيرة).

كان أقارب أسرة الشيخ مريد، هم ألد أعدائهم. فقد أذاقهم أبناء خؤولتهم الويل ألواناً. ولم يُقصِّروا في إيذائهم. مع هذا كانت أسرة الشيخ مريد تتمتع بإيمان راسخ وثبات. فلم يخشوا بعد الله أحداً. وما خاف أهل قلعة الرحيم من أحد، خاصة حينما يغضبون لله، قدر خوفهم من الدكتور شهيد، عندئذ لا يقدر أحد على التصدي له. حدث ذات يوم أن قال أمامه أحد أطباء المستشفى الذي يعمل فيه، إن الله غير موجود (حاشا لله)، فما كان من الدكتور شهيد، إلا أن أمسك بالطبيب، وهمَّ أن يلقي به من نافذة المستشفى، لولا أن تمالك نفسه فظل يكيل له

الضربات حتى أسال الدم من أنفه وفمه. ولم يَسْلَم من ضربه كل من حاول أن يُخَلّصه من يده.

كان محمد شهيد، يعود يوم الجمعة من كل أسبوع، فيطرق بشدة أبواب الأسر الشيوعية، ويصيح فيهم متحدياً، ويدعوهم للخروج إليه بقوله:

- أما من كلب شيوعي بالبيت؟... إن كان، فليخرج إليّ ليحاورني.

ومن لا يخرج، كان يُخرجه بالقوة، ويثيره ليشتبك معه. ويا بؤس حال من يتصدى له. وكان الحديث الذي لا ينقطع بين أخواله هو: - لقد فاض الكيل بنا من عائلة مريد. يجب أن نتخلَّص منهم، وإلاّ جرّوا علينا المصائب... لقد امتنع أبناؤنا عن المجيء إلى القرية في الإجازات، خوفاً منهم.

فكانوا يُفضون في السِّر، بما لا يجرؤون على الجهر به.

أما الأستاذ سيد، الأخ الأكبر للدكتور شهيد، فنموذج مختلف تماماً. كان أكثر هدوءاً ورفقاً. وكان ينصح الدكتور شهيد بكبح جماح نفسه، وعدم التصرف بهذه الخشونة، وأن يجادل الناس بالتي هي أحسن. وكان شهيد يُنصت إليه باحترام، لكنه لا يكف يده عن ضرب الملحدين. كان الأستاذ سيد معارضاً لنظام الشاه وكان عضواً في مجموعة الأستاذ

نيازي[1] التي تعمل ضد الشاه... كما كان يتحلى بالصبر الذي يهيِّئ له أسباب النجاح في كل أعماله. ولأنه مُعَلّم في المدرسة، فقد التف حوله عدد كبير من التلاميذ، بشكل يثير الانتباه.

أما محمد وحيد، فكان طالباً في الصف النهائي في المدرسة الثانوية. وهو يشبه في طباعه أخاه الأكبر الأستاذ سيد. وكان محمد وحيد يدعو أصدقاءه في المدرسة إلى الطريق القويم، فأحبوه بدورهم. وكان ترتيبه الأول دائماً في فصله، رغم كيد المدرسين الشيوعيين، وذوي الاتجاهات الأمريكية. وكانت تعليقاته وشروحه مؤثرة، وسرعان ما أصبح كل تلاميذه يجتمعون في فصله في أيام الجمعة، ويستفيدون من خزانة علم أخيه الأستاذ سيد. كان هذا الوضع قذى في عين أهل قرية الرحيم. وما حال بينهم وبين أسرة الشيخ مريد، سوى خوفهم من الدكتور شهيد، فكانوا يعضّون على نواجذهم انتظاراً لليوم الموعود.

(1) محمد غلام نيازي؛ تعلم في مصر وتأثر بالحركة الإسلامية فيها. كان عميداً لكلية الشريعة في كابول سنة ١٩٦٨م. فكّر في أن يربي جيلاً من الشباب يبصره بخطورة التحول الذي يجري في أفغانستان أيام حكم محمد ظاهر شاه، وليقف أمام الزحف الشيوعي عليها.. بدأ دعوته بين الأساتذة ثم بين الطلبة في الجامعة بشكل سرّي، شكل جمعية إسلامية لهذا الغرض باسم «جونان مسلم»، أي الشبان المسلمين عام ١٩٦٩م. وبعد عام ١٩٧٢م غير أبناء الحركة الإسلامية اسم الجمعية إلى الجمعية الإسلامية، واختاروا برهان الدين رباني رئيساً لها، بينما استمر الأستاذ نيازي يديرها من وراء ستار.

أما الابن الرابع فهو محمد مزيد. وهو مثل أخيه شهيد، وله طباعه نفسها. فلا يجرؤ زملاؤه في المدرسة على مناقشته في قضايا كهذه. بل كانوا يستمعون إليه وهم صاغرون. وعندما التحق بالمدرسة الثانوية، لم يَسْلَم من يده أمريكي الاتجاه أو شيوعي، إلا ضربه. وكان خاله الكبير يردد:

- آه، إن عداءنا لشهيد ومزيد يفوق عداءنا لبقية أبناء الشيخ مريد. ما يقهرني شيء قدر رؤيتهما في القرية دائماً.

وفي يوم الجمعة من كل أسبوع، كان محمد شهيد يكتب ورقة ويثّبتها بمسمار على باب بيت خاله يدعوه إلى صلاة الجمعة، ويُذكّره بما ينتظر المرابين في الآخرة من عذاب أليم. وأسقط في يد أخواله، وعجزوا عن مواجهته، وعيونهم تقطر دماً.

شَغَل أبناء الخال وظائف هامة في كابول. وتولوا مناصب كبيرة في الدوائر الرسمية. فقد كانوا ممن يلعقون تراب أمريكا، وطالما هددوا شهيداً بعزله من عمله. أما زوجة الخال الكبير، فقد أصبحت رئيسة اتحاد النساء الشيوعيات في حزب الشعب. وبالطبع؛ كان نشاطهم سرّياً في عهد الشاه.

وانقضى حكم الشاه داود[1]، واستولى الشيوعيون على

(١) في تموز (يوليو) ١٩٧٣م أطاحت روسيا بالملك محمد ظاهر شاه وجاءت مكانه بابن عمه محمد داود شاه، ليضرب الحركة الإسلامية في أفغانستان. وقد استمر حكمه حتى نيسان (إبريل) ١٩٧٨م، وكان يميل إلى الشيوعية، وقد تربى في =

السُّلطة بانقلاب دموي. وعمَّت الفرحة قلعة الرحيم من أقصاها إلى أقصاها. كلهم يتبادلون التهاني، إلا عائلة الشيخ مِريد، فقد كانت مهمومة محزونة لهذا التغيير. لكنها كانت مستبشرة وصابرة.

كانت الخالات وأبناء خؤولتهم وأزواجهم، يسخرون من أتباع الدكتور شهيد بقولهم:

– يا أنتم. مبارك علينا حكمنا الجديد. ألا تسعدون أنتم أيضاً به. فينتفض محمد شهيد قائلاً:

– بالطبع نعم، علينا أن نسعَد. فقد باع أبناء الخالات أمهاتهم، هيا اغربوا عن وجهي وإلا أخرجتكم بالقوة.

فيُمسِك به الأستاذ سيد ليهدئه، ويطردهم قائلاً:

– مبارك لكم جميعاً. نحن نريد أن نضحك. ومن يضحك أخيراً، يضحك كثيراً. افرحوا واضحكوا في بيوتكم. هيا اخرجوا.

فكانوا يخرجون من البيت وهم يتضاحكون ويتلامزون.

* * *

= بيته كبار قادة الشيوعية أمثال نور الدين تراقي، وحفيظ الله أمين، وبابراك كارميل. وقد رتبت روسيا انقلاباً عسكرياً ضده قاده مستشاره تراقي، بعد أن رأت روسيا أنه لم يستطع القضاء على الحركة الإسلامية، ولأنه فكر في التخلص من الشيوعيين الذين يطمعون في الحكم.

بدء الجهاد

علم الأستاذ سيد ببدء الجهاد الأفغاني بعد أسبوع واحد من استيلاء الشيوعيين على السلطة، فكانت سعادته غامرة، بلا حدود. فَيوم الجهاد هو اليوم المرتقب، وإنه ليوم الفرحة، لذا شكر الله كثيراً على أن منَّ عليه ببلوغ هذا اليوم، وبدأ فوراً التأهُّب للجهاد. أبعد النظام الشيوعي الدكتور شهيد، بأن نقلوه إلى قرية نائية. وانشغل أخوه الأستاذ سيد بعمل الاستعدادات الضرورية للجهاد. أما الشيخ مريد فكان يحس أن الأيام التي طالما انتظرها قد أوشكت، فلم يسعه سوى الابتهال شكراً لله وعرفاناً. فكان يخلو لنفسه ويتمتم:

- ها قد ظهر الحق، وسيتم الله نوره، ولو كره الكافرون.

وكان يُحَدِّث أبناءه في بعض الأمسيات:

- كنتُ أُعِدُّكم لهذا اليوم، وهذا ما عاهدتُ الله عليه. وقد جاء يوم امتحانكم، أدعو الله أن يتقبل جهادكم في سبيله.

ترك الأستاذ سيد عمله في المدرسة، ليتفرَّغ للجهاد. وكان أخواله وأبناؤهم ينتظرون يوم الجمعة من كل أسبوع بفارغ الصبر، ليتحدوه ويثيروه بقولهم:

- انظر كم أصبحنا أقوياء!... لقد أطحنا بالخونة وقتما أردنا. أين منظمة الشباب الإسلامي التي كوَّنتموها؟ ماذا أصابها؟.

طلب الأستاذ سيد من تلاميذه المؤمنين، أن يستعدوا للجهاد. وكان هذا الشباب المؤمن قد أسلم قيادته إلى الأستاذ سيد. أثناء ذلك، لم يترك الشيوعيون سبيلاً إلا سلكوه. كانوا يعتَلون كل منبر يلوح لهم، فيرفعون عقيرتهم ويخطبون في الناس، بقولهم:

- لقد قضينا على الإمبريالية. ولتحي ثورتنا الحمراء. الموت لعلماء الدين... الموت للرجعية. أيها الرفاق، لقد قامت ثورتنا وانتصرنا، فلا يَغِب عنكم أن بيننا عُملاء لأمريكا، وأسوأ منهم بعض الرجعيين... ليعتبر كل واحد منكم نفسه حارساً للثورة... واجبكم تعقُّب هؤلاء الخونة، وإخراجهم من جحورهم... الموت لأبناء الأشراف. فقد استحقوا الموت منذ زمن بعيد... لقد امتصوا دماءنا، وتسلطوا على العمال وسخَّروهم لمصالحهم وحرموهم من كل الحقوق، وحبسوا بناتهم في حجرات مظلمة، وكبَّلوهن بالقيود، وغطوا رؤوسهن بأغطية النوم، وحرموهن من العلم والعمل، وكانوا أداة لتنفيذ رغبات الإقطاعيين. كما استغلوا في هذا إيمانكم الديني؛

فكل ثَريّ بإمكانه أن يتزوج ثلاث زوجات بل أربعاً، وتصبح الزوجات الأسيرات المسكينات، أعداء فيما بينهن... أيها الرفاق، لا فرق في الحقوق بين الرجل والمرأة... أيها الرفاق، تستطيع نساؤنا الآن الخروج إلى الشوارع وإلى الحياة العامة بلا خوف من المشايخ... لقد تزوج الإقطاعيون بمن تهوى أنفسهم، وسلبوا الأرض من الفلاح، يحرث الفلاح الأرض، ويستولي الإقطاعيون والأشراف على المحصول... يعمل الفلاح وأسرته طوال العام، وفي النهاية يكون نصيبه حفنة من ذُرة أو قمح... ألم تسألوا أنفسكم أبداً، ما السبب في أن ابن الإقطاعي يستطيع أن يتعلم في المدارس العالية، وأن يسافر إلى أوروبا وأمريكا، بينما لا يستطيع ابن العامل والفلاح أن يفعل الشيء نفسه؟!. ذلك لأن الإقطاعي والشيخ لا يرغبان في إثارة هذا التساؤل، كي تظل جيوبهم عامرة بالمال... وإذا مرض الأب، فلا بد أن يعمل أبناؤه بدلاً عنه، وإلا أفلس الإقطاعي والشيخ؛ ففضيلة الشيخ يحذر الفلاحين والعمال قائلاً:

- إن بناتكم ونساءكم لابد أن يقَرْن في البيت ولا يبرحْنَهُ أبداً. يجب أن تحجبوا نساءكم، وأن يساعد الابن أباه في العمل بدلاً عن التعليم، فما جدوى أن يتعلم؟! عليكم أيها الفلاحون أن تَفلحوا أرض الإقطاعي أولاً...

واستمر هؤلاء الشيوخ في خداع شعبنا المسكين بكلام كثير كهذا. أيها الرفاق، يجب القضاء أولاً وقبل كل شيء على هؤلاء المشايخ وعلى جماعة إخوان الشياطين الرجعيين. لقد انتهى عهدهم وعهد تصديق كلامهم، فكل ما يقولونه كذب وهراء. وعندما نقضي عليهم، على أولئك المشايخ الدمى في يد الإقطاعيين، عندئذ نكون قد قضينا على الإمبريالية أيضاً.

كان الناس المجتمعون في الميادين، يستمعون إلى خطب هؤلاء الشيوعيين وهم كارهون، والدم يغلي في عروقهم لرؤية بناتهم وقد خرجن بالميني جيب الأحمر. وأكثر من هذا، أن هؤلاء الشيوعيين، كانوا يخدعون البنات الصغيرات، ممن يناهز عمرهن الخامسة عشرة، بكلمات تعني أن آباءهن يستغلونهن، وأن باستطاعتهن الآن التحرر منهم، والعيش بلا خوف من أحد. وكانت آلاف الفتيات المخدوعات، ينفذن ما يطلبه منهن الشيوعيون بدون تفكير. كما سلبوا عقول الشباب بالأفلام والعروض الخليعة القذرة.

أما الآباء غير المتحمسين للتعليم الديني، ممن أرسلوا أبناءهم إلى المدارس الاستعمارية بأمل أن يصبح الواحد منهم طبيباً أو مهندساً أو طياراً، أصبح هؤلاء الآباء، يضيقون

لتأخر أبنائهم خارج البيت، حتى ساعة متأخرة من الليل، وإذا سألوهم عن سبب تأخرهم، كان الجواب الذي يتلقاه الأب هو:

- وما شأنك أنت؟ نحن الآن أحرار... وسنعمل حتى منتصف الليل للقضاء على التعصب الأعمى وعلى الإمبريالية. ولن يقف أحد في سبيلنا؛ ولا حتى أمُّنا. أفهمتَ هذا؟.

ومن هول المفاجأة ينهال الأب بالضرب على ابنه أو ابنته، ويستمر الحال على هذا المنوال عدة ليال، ويمنعه من الخروج. وبالرغم من هذا كان يدرك أن زمام الأمر قد أفلت من يده. وكان الابن بدوره يحكي لأصدقائه ولمعلمه الشيوعي كل ما دار بينه وبين والده. فكان المعلم الذي رسم له هذا الطريق يعطيه جهاز تسجيل ويقول له:

- خُذ هذا الجهاز وسجِّل عليه صوت والدك (أو أخيك الكبير) وأحْضِره لنا، واتْرُك لنا نحن أن نقرر مصيره.

وهكذا يكون الشاب قد لُقِّن الدرس الأول في الاشتراكية. وطبيعي بعد هذا ببضعة أيام أن يُزج بالأب المسكين في السجن، أو أن يُقتل:

وأخذ الفساد يدب في كل أسرة؛ كل فرد في الأسرة عدو للآخر؛ الأخت الكبرى تنتمي إلى حزب الشعب، والأخ الأكبر

برشمي، والآخر: إما محايد، أو ينتمي إلى مجموعة أخرى. والأمهات والآباء أمام الجميع صامتون، عاجزون... وإذا تَفَوَّه أحدهم بكلمة واحدة، لَدَغَه الثعبان الذي رباه في حضنه.

اعتصم الأستاذ محمد سيد وإخوانه المجاهدون بجبل (علي شانج) وكانوا يشنون غاراتهم الليلية على المليشيات المسلحة، مما أثار غضب الشيوعيين المتعطشين للسلطة. وانشغل الموالون للروس بإقامة الملاهي في كل مكان. وبذل العملاء كل ما في وسعهم للإيقاع بهؤلاء المجاهدين الذين أقضوا مضاجعهم. واتُّخِذَت الاستعدادات اللازمة في كل مكان للقبض على من أطلقوا عليهم اسم الرجعيين.

وذات يوم توجه الخال الخائن إلى المدرسة التي كان يعمل بها الأستاذ سيد، فعرف أنه طُرد منها، وتأكد من صحة ما توقعه. وكانت سعادته في ذلك اليوم بغير حدود: كان يفكر في ثأره من عائلة الشيخ مريد. توجه الخال بخطى وئيدة قاصداً بيت الأستاذ. وعند الباب أعاد تنظيم هيئته، وحاول أن يحتفظ برأسه مستقيماً، وقطَّب جبينه، وتقمَّص الجدِّية. ولم ير ضرورة للاستئذان قبل الدخول، فوضع يديه متشابكتين وراء ظهره، وتقدم في اتجاه ذلك الجنب من سقيفة البيت.

كانت رائحة الخبز تملأ ساحة البيت، والهواء مفعم بالدخان ورائحة الخبز، بينما جلست أخته - والدة الأستاذ سيد - بجانب الفرن تنحني تارة... وتعتدل تارة أخرى، وهي تخبز في الفرن. وقد أدارت ظهرها ناحية الباب، بينما الشيخ مريد جالس أمامها، محدقاً في داخل الفرن. ولما سمع الشيخ وقع الأقدام، رفع رأسه وعيناه مفعمتان بالحزن، ونظر محدقاً فيمن يقف أمامه. في البداية لم يتبين أنه الخال الخائن، وعندما تبينه، امتلأت عيناه بالحقد، وهمَّ بأن يطرده، لكنه كبح جماح نفسه، بينما الخال يضحك ضحكة بلهاء قذرة... باردة.

تقدم الشيخ مريد ناحية الخال الخائن، بدون أن يفقد مظهره، وقال:

- مرحباً. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

وبسرعة أدارت والدة الأستاذ رأسها، فرأت الخال، وتفحصته باشمئزاز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. كانت امرأة قروية، قوية البنية، مملوءة إيماناً وقوة... إنها لا تخشى أحداً غير الله. تكلمت وكأنها تبصق:

- أبو الكافر؟ بأي شيء جئت تهذي هذه المرة؟ هيا انطق؟

فقال ضاحكاً:

- يا حبيبتي، هذه هي المرة الأولى التي آتي فيها إلى هنا؟ لِمَ خوفك! أم أن في الأمر شيئاً؟!.

انتفضت والدة الأستاذ مكانها، واقتربت منه، وأمسكت بتلابيبه قائلة:

(نعم في الأمر شيء أو بالأحرى أشياء... اغرب عن وجهي. هيا اخرج. لا أريد رؤيتك هنا. هنا بيت المسلمين، وليس بيت الكافر. اذهب إلى حال سبيلك، وافعل كل ما في وسعك. أنا لا أخاف حتى من ذلك الخنزير المدعو (تراقي). اذهب وأبلغهم أن زوجة الشيخ تمردت، ربما يُنعمون على ابنك برتبة أخرى، أو ربما يتصدقون عليك ببعض النقود ثمن وظيفتك النجسة... وأخيراً، بأي حق تدخُل هذا البيت؟. إني أستعيذ بالله من أن أكون أختاً لرجل مثلك من إخوان الشياطين. أنا وأنت مثل قالبين من القرميد صُنِعا من التراب نفسه، وفي القالب نفسه، وبعد ذلك وضعوا أحدهما في جدار جامع، والثاني في جدار حانة... الفرق بيني وبينك هو الفرق بين الجدارين نفسه. أنا وأنت أبناء أم واحدة، وأبٍ واحد، فاخترتَ أنت طريق الشيطان، وطريق الهلاك، واخترتُ أنا الصراط المستقيم الذي بيَّنَه الله...

قالت هذا، ثم التقطت حزمة حطب ثقيلة من فوق الأرض، وأخذت تلوِّح بها في الهواء وهي تصيح:

- اخرج، اخرج عليك اللعنة، اخرج أيها الفاجر، اخرج وإلا أسلتُ دمك.

نهض الشيخ مريد من مكانه، وأخذ من زوجته حزمة الحطب، وصاح في الخال الخائن:

- اخرج من هنا، وانصرف والزم شأنك. من الخير أن تخرج من هنا. ثم إنني لا أدري ما الذي بيننا وبينكم؟ ألم ينته كل ما بيننا؟ طريقنا شيء وطريقكم شيء آخر.

ارتبك عاثر الحظ المسمى الخال. كان في قمة غضبه، لا يدري ماذا يفعل، فقال:

- حسنٌ، سأخرج. لكن ليبصق الناس كلهم على وجهي إن نجوتم من قبضتي. أنا أعرف أين ابنك، ولحساب من يعمل. أنتم رجعيون قذرون، عملاء الإقطاعيين وأعداء الشعب.

ثم اندفع خارجاً من الفناء وهو يرغي ويزبد، بينما أطل الجيران برؤوسهم من الأبواب، وكأنهم قلقون لمعرفة ما جرى.

* * *

مرّت بضع دقائق، وغشى السكون المكان. كان الشيخ مريد وزوجته يجلسان في ركن السقيفة، يغشاهما صمت وحزن غريبان وبعد برهة، بدأت الزوجة تتلفت حولها في شك وريبة، ثم نهضت من مكانها في حذر شديد، واتجهت إلى داخل البيت. كانت تحمل الخبز الذي خبزته في سلة. فتحت باب البيت بحذر وهدوء. وكان البيت مظلماً بسبب إغلاق نوافذه. اجتازت الحجرة، ودلفت إلى حجرة أخرى، وأغلقت الباب من ورائها، ثم نظرت إلى الكومة الكبيرة التي تكونت من المراتب والألحفة، وألقت عليها نظرة شاملة، ثم تركت السلة التي في يدها، وسحبت من الكومة لحافاً ومرتبة أو مرتبتين ووضعتهما جانباً، فظهرت من ورائهما نافذة صغيرة... دفعت النافذة فانفتحت. خلف النافذة كانت غرفة مظلمة يضيء بداخلها مصباح خافت إلى أقصى درجة. حشرت الأم نفسها من النافذة ودخلت منها بصعوبة بالغة، وألقت بنفسها إلى داخل الغرفة، ثم رفعت المصباح الذي على الأرض ثم تقدمت ناحية الركن المظلم من الحجرة. وهناك كان على الأرض مرتبة مفرودة ولحاف؛ فرفَعَت ببطء جانباً من هذا اللحاف.

كانت الأم تسمع صوت أنفاسها يتردد داخل الحجرة، والأستاذ سيد راقد فوق الفراش، ذابل الوجه. فتح عينيه

بتثاقل وضعف، ونظر في مجال محدود. كان عاجزاً عن التعرف على من يقف أمامه. ثم أغلق عينيه وغاب عن الوعي، بينما أمه تذرف دموعها في صمت.

فقد حدث قبل أسبوع، أن صَعدت بضع مجموعات من جنود وضباط تراقي الخونة، جبل (علي نجار)، للقبض على الأستاذ وإخوانه المجاهدين، أحياءً أو أمواتاً. وكان الأستاذ ورفاقه خلال ذلك الأسبوع، قد نزلوا من الجبل لمهاجمة منازل المليشيات المسلحة العميلة. وذات ليلة هاجم الأستاذ منزل أحد هؤلاء العملاء، فصاح ذلك العميل الوضيع:

- سأستسلم؛ لكن ليدخل أحدكم إليَّ أولاً لأسلمه السلاح، ولا تظنوا أني فاعل شيئاً به.

فهم الأستاذ سيد أن ما يحدث ليس إلا خدعة، فردَّ عليه قائلاً:

- لا، بل اخرج أنت أيها الوضيع، وسلِّم سلاحك هذا الذي تشهره ضدَّ الإسلام. ثم لا تكتفي بذلك، فتفكر في خداعنا!!!!! حقاً إنك لوضيع... اخرج وإلا أخرجناك بالقوة.

فَهِم الرجل أنه مقتول لا محال، فأطْفَأَ مصابيح البيت، وانطلق يجري خارج البيت بأقصى سرعة، وهو يطلق النار من رشاشه الكلاشينكوف الروسي بشكل عشوائي، يطلقه في

كل اتجاه وهو يسعى في سبيل الهرب. أدرك الأستاذ وأصحابه حيلة ذلك الخائن، فأخذوا بدورهم يطلقون النار عليه بدِّقة من بنادق الصيد التي في أيديهم. كان ضرورياً أن يُصيبوه وأن يأخذوا السلاح الذي في حوزته. فحاجتهم ماسة إليه، ولزاماً عليهم أن يطردوا العدو بذات سلاحه.

كان القاتل العميل يرتعد خوفاً. فقد أدرك أنه محاصر من جميع الجهات، فاستمر يطلق النار بغير توقف، لعل مفرزة قريبة تسمعه، فتسرع لنجدته. أمَرَه الأستاذ للمرة الأخيرة أن يُلقي سلاحه ويستسلم. فبدأ العميل يتلفت حوله خائفاً بعد أن أدرك أنه لا مفر؛ وألقى بندقيته على الأرض وقد أُسقط في يده. فتقدم الأستاذ من بين ظلال الأشجار، واقترب من الجندي العميل ببطء وحذر. لكن سبق السيف العذل. فذلك العميل كان يهدف إلى كسب الوقت لكي يتمكن من الهرب، وقد نجح في هذا بالفعل. ذلك لأن الظلمة انقشعت، ولم يفطن المجاهدون لخداعه. وكان بعض أتباع الأستاذ لا يحملون بنادق، إنما بلطة وما شابهها.

سمع أحد تلاميذ الأستاذ صوت سلاح، فصاح لينبههم للأمر، فأنصت الجميع؛ حقاً إن صوت سلاح يُسمع من على بعد، قال الأستاذ:

- لقد خدعنا هذا الوضيع. ويبدو أن مفرزة سمعت صوت سلاحه وأنها في الطريق إلى هنا لنجدته احذروا، ما زال أمامنا وقت للنجاة، لكن علينا أن ننتهي من هذا أولاً.

وسمع العميل أيضاً صوت السلاح يقترب بشكل مضطرد... فقام بحركة مفاجئة وسريعة، وأخرج مسدساً من خصره، وأطلق بضع طلقات على الأستاذ، الذي كان على مسافة بضع خطوات منه. وبالحركة السريعة نفسها، لاذ العميل بالفرار ناحية الأشجار التي وراءه، بينما سقط الأستاذ مضرَّجاً في دمائه.

أفاق زميل الأستاذ من ذهول المفاجأة، وأخذ يُطلق النار من بندقية الصيد التي في يده في اتجاه القاتل الذي كان يفِر من أمامه كالخيال. وانطلقت من خلف الأشجار صرخة مدوية اخترقت الآذان.

هُرع التلاميذ والمجاهدون ناحية الأستاذ، والتفوا حوله؛ فقال لهم بصوت واهن:

- ارفعوا... ارفعوا الكلاشينكوف الذي على الأرض... هيا... اهربوا... اتركوني... على الأرجح أن حياتي انتهت هنا... حاولوا أن تهربوا، هيا اهربوا...

لكن أيتركونه؟!... وبينما كانوا يحاولون حمل الأستاذ،

كان عساكر حكومة تراقي وَشرطتها يهبطون من السيارات الجيب ويهرعون ناحية مصدر صوت السلاح.

قال الأستاذ بصوت متحشرج وكأنه يتوسل لزملائه:

- بالله عليكم، اذهبوا واتركوني... خذوا معكم الكلاشينكوف. لا تُفرِّطوا فيه... هيا... كان الله معكم... ادعوا لي... انتبهوا، فقد اقتربوا... أَنُسلِّم أنفسنا هكذا جُملة... فلنردَّ عليهم كيدهم. آه... بالله عليكم هيا انهضوا... دعوكم منّي... لا تحملوني معكم... لا، لا تهربوا من ناحية واحدة... وإنما من اتجاهات شتى.

ثم أغمض عينيه. فقال مدرس من زملائه:

- وداعاً يا أستاذي. وداعاً يا أخي العزيز. كان الله في عونك، وليمنحنا القدرة لنثأر لك ولإخواننا بإذن الله.

ثم رفع الكلاشينكوف الذي علىَ الأرض، وقال لأصدقائه:

- هيا بنا. توكلنا على الله. ليهرب كل واحد من ناحية. ولنحرص ألاّ نقع في أيديهم.

فصاح أحد زُملائه:

- مستحيل، لن يحدث هذا ما بقينا على ظهر الدنيا. لن أترك جسد الأستاذ لهؤلاء الكفار.

أجاب صديقه:

- هذا ما أمر به الأستاذ، لقد أصيب في رأسه، وقد لا نراه مرة أخرى. علينا إذن أن نلبي له رغبته الأخيرة. يجب ألاّ نفقد الكلاشينكوف. هيا انهض ودعك من هذا التهور.

وبذلك نجح في إقناعه بالمضي معهم. وتمكن المجاهدون من الاختفاء بين الأشجار تحت جنح الظلام. أثناء ذلك وصل جنود تراقي إلى حيث يرقد الأستاذ يئن مضرجاً في دمائه. أدار أحدهم وجه الأستاذ، وأخذ يمسح الدماء التي تنزف من رأسه بمنديل كان معه، فنهره رقيب منهم بقوله:

- ما هذا! دعك من هذا الشرير، ألا ترى لحيته؟! إنه من الرجعيين، وإصابته لابد وأن تكون قد حدثت أثناء اعتدائه على رجالنا.

قال الرقيب هذا الكلام، ثم انحنى كالضبع فوق الأستاذ الراقد على الأرض مغمض العينين، وأمسكه من شعره المخضَّب بالدماء، وقال وهو يعض على نواجذه:

- لقد وقعت في أيدينا، فانتظر ما سيحل بك من عذاب. أتَوَدّ أن تُفسد علينا ثورتنا!!.

جرى كل هذا أثناء شروق الشمس. وعمَّ النور المكان...

أقبلت حوالي خمس سيدات يهرولن ناحية العسكر، ويولولن في جزع. صرخت إحداهن بجندي يمسك خنجراً في يده:

- ما الذي أخَّرَكم إلى الآن؟ ماذا أصاب زوجي؟ لقد خطفه الأشرار. أظَهَرتم الآن فقط، بعد أن أشرقت الشمس؟! أيها الجبناء السفلة. أين وعودكم؟؟ قلتم لنا خُذُوا السلاح ولا تخافوا شيئاً. نحن نحميكم. هاتوا لي زوجي، هاتووووووه.

وفجأة... اصطدمت قدمها بجسد الأستاذ الراقد على الأرض وفمه غارق في الدماء. ففتح عينيه ورأى ما يدور حوله... وبدأ الناس يتدفقون من البيوت المجاورة. كان الأستاذ مازال على قيد الحياة رغم إصابته في رأسه والدم الذي يتدفق منه. الْتف الناس حول الأستاذ، وقد غطت الدماء وجهه، فلم يتعرف عليه أحد. ولكنَّ الأستاذ رغم إصابته، كان بمقدوره أن يرى ويسمع كل ما يدور حوله. بدأت النساء في الصياح والتساؤل، عمن يكون هذا الراقد فوق الثَرى؟؟. صاحت تلك المرأة التي كانت تتصدر صراخهن:

- إنه شرير... شرير. لكن أين زوجي؟ أين هو؟ هاتوه... هات...

والتقطت إحداهن حجراً، رمت به الأستاذ، كذلك فعلت الأخريات، وأخذن يكلن له الضربات المتلاحقة ويرمونه بكل

ما تقع عليه أيديهن؛ بالقرميد والخشب والعصي والحجارة. ساد الهرج والمرج. وفجأة اندفع رجل ضخم الجثة، وسط هذه الحيرة التي استولت على الجميع، وأخذ ينهر النساء قائلاً:

- مهلاً، ما هذا؟ توقفن. ماذا تفعلن؟! أوقفوا هؤلاء المجنونات.

ثم أمسك بشعر أول امرأة أمامه، وطرحها أرضاً بكل قوته، ثم التفت إلى الرقيب يقول له موبخاً:

- انتبه أيها الأبلة. إنه ما زال حياً، ومن الأفضل أن يظل حياً. قال الرقيب وهو يبعد النساء عن المكان:

- نعم، نعم أيها السيد... هيا تراجعن... ابعدن.

فقالت إحدهن وهي تصرخ:

- آه يا زوج أختي... ماذا فعل بك هؤلاء الملتحون الأقذار، آه...

ووسط هذا الزحام، أصاب حجر رأس امرأة، فصرخت (آه) ثم سقطت على الأرض. ولما أصابت الحجارة بعض العساكر أيضاً، أدرك الرقيب خطورة الأمر، وما سيؤول إليه. فلوّح بالكلاشينكوف الذي في يده، وصاح يمطر العساكر بأوامره:

- أطلقوا النار على كل من يقترب، وعلى من لا يبتعد مهما كان.

فالتفت الرجل ضخم الجثة، إلى النساء، وصاح فيهن قائلاً:

- هيا، ابتعدن من هنا، انصرفن. ثم التفت إلى الرقيب قائلاً:

- هيا، وأنتم أيضاً انصرفوا من هنا قبل أن يفتِك الناس بكم، فمن الممكن أن يحدث مالا تُحمد عقباه. وسأقوم أنا بنقل الرجل إلى السيارة الجيب. هيا، أسرعوا، وهناك في مكان المفرزة يمكن أن نفهم كل شيء بشكل أفضل.

وفي هذه الأثناء، صاح فتى من وسط الزحام قائلاً:

- يا هذا، هناك ميت وراء تلك الأشجار.

فانطلق الجميع معهم الرقيب في اتجاه منطقة الأشجار التي أشار إليها الفتى، وأطلقت إحدى النساء صرخة مدوية وصاحت:

- إنه هو، هذا، هو بعينه، آي يا ربّ، لقد قتلوه.

وتعالت صرخاتها، وبدأت الأخريات في شد شعورهن والصراخ... عندئذ أدرك الناس أن هذا الميت هو العميل القذر.

وبينما كان الناس مشغولين بالجثة التي عثروا عليها مؤخراً، قام الرجل ضخم الجثة - وكان واقفاً بجوار الأستاذ - برفع الأستاذ من فوق الأرض بقوة وحمله فوق كتفه وقال لرقيب آخر نحيفٍ جداً، كان بجواره يحمل الكلاشينكوف:

- هيا، إني سأنقله إلى السيارة الجيب، واجمع أنت الرقيب والعساكر. ويحسن الآن أن تبتعدوا من هنا قبل أن تحدث لكم مصيبة. ثم نعود معاً فيما بعد بالدبابة إلى مكان الحادث... هيا لا تتلكؤوا، فالنساء ثائرات... هيا....

قال هذا، واختفى بين الأشجار وسط الرقيب والجنود... استغرق الرقيب في الدهشة مدى دقيقتين، ثم جرى ناحية الرقيب الآخر الواقف بجوار الجثة، وقال له:

- هيا... يجب أن ننصرف من هنا، فنحن لا نأمن في البقاء هنا بدون دبابات.

وبينما هُم يبتعدون عن مكان الحادث، سأل أحدهم الآخر:

- أين جثة الشرير؟ !.

- إنه... إنه حمله إلى السيارة الجيب.

- من أيها الأبله؟ !.

- ألا تعرف ذلك الرجل الذي طرد النساء!! إنه هو...

قال الرقيب:

- عليك اللعنة، أين؟؟. اجر، يجب أن نلحق به.

بدأ الرقيب والعساكر في هبوط التل كالبرق. وكانت حوالي خمس عربات جيب تقف بجانب الطريق، ينتظر بجوارها حوالي ستة عساكر، وقد نفد صبرهم. سألهم أحد الرقباء وهو يلهث:

- إنكم عساكر لا فائدة ترجى منكم... هيا انهضوا، هل مرَّ من هنا أحد يحمل على ظهره جثة رجل؟؟

نظر العساكر إلى بعضهم في دهشة... فصاح الرقيب بحِدَّة:

- عليكم اللعنة، هيا انطلقوا!!..

أجاب أحدهم وهو يتلعثم:

- رجل!! لا، لا لم يمر... لم نر أحداً.

ضرب الرقيب بقدمه الأرض غاضباً، وقال وهو يكاد ينفجر من الغيظ:

- تبًّا لكم. لقد ضيَّعْنا فرصة القبض على هذا الوغد، كما أنه خدعنا... يا له من ماكر.

* * *

دّر الله وما شاء فعل. ما أعجب ما حدث. فالله لا يتخلى عن المجاهدين في سبيله، والخير هو ما يختاره الله... لكننا لا نعرف دائماً أين الخير.

* * *

لا تقولوا إن هذا كذب... ولا تقولوا عنه إنه محض خيال... فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء... ألم يُنّجِ سيدنا إبراهيم من النار؟ ألم يُنّجِ رسولنا الحبيب عليه الصلاة والسلام من المشركين بأن نسج العنكبوت خيوطه لتحميه وكأنها جدار؟... لا شك أن الأمر كذلك. إن الله أرحم بعباده من الأم بوليدها... إنه عالم بكل شيء... من كان هذا الرجل؟! الرجل الذي هرَّب الأستاذ أمام عيونهم جميعاً، وحمله إلى ناحية ما!!... وكلما سأل الرقيب أحداً عنه، يجيبه قائلاً:

- وكيف لنا أن نعرفه؟!.. لعله غريب عن هنا...

كان ذلك الرجل الذي هرَّب الأستاذ، واحداً من المخلصين للمجاهدين. كان يعرف الأستاذ وأصدقاءه.

كانت عائلة الشيخ محمد مريد، نائمة ليلاً عندما سمعوا طرقاً شديداً على باب القلعة. فاستيقظ على أثرها الشيخ مريد وهو يتمتم:

- خير إن شاء الله.

وأشعل المصباح، كما استيقظ كل مَن في البيت. وصل الشيخ إلى الباب حاملاً المصباح في يده، وصاح قائلاً:

- من الطارق؟

جاءه الرد بصوت منهك:

- أيها الشيخ، افتح الباب... أنا، أنا أحد أصدقاء الأستاذ.

تعرَّف الشيخ مريد على الصوت، ففك السلسلة من الباب وفتحه، ثم نظر إلى الخيال الفارع الذي دخل من الباب حائراً، وإلى الشيء الغريب الذي يحمله فوق ظهره. رفع الشيخ المصباح إلى أعلى ليتمكن من رؤيتهما جيداً، وأمعن النظر... فعرف أن الجريح الفاقد الوعي فوق ظهر الرجل، هو ابنه الأستاذ، فقال بصوت متحشرج:

- ابني محمد سيد، أهو أنت!!

- اسكت، اسكت، تكلم بصوت خفيض، هيا اهدأ ودلّني على مكان سرّيّ نرقده فيه ليستريح.

خفض الأب المؤمن الصابر الوقور، ضوء المصباح كأن شيئاً لم يكن، وقال:

- اتبعني.

ثم اجتاز الفناء الأمامي، ودار خلف البيت، وتقدَّم ناحية مخزن التبن، والرجل يتبعه. وأرقدا الأستاذ فوق التبن بحذر؛ فقد كان الدم ينزف من رأسه نزفاً قليلاً ومستمراً. رفع الأب فتيل المصباح، ثم وضعه في جانب. في هذه الأثناء بالضبط، انفتح باب المخزن، ودخل محمد فريد، ومحمد وحيد، ومحمد مزيد. وتعلقَتْ عيون الإخوة الثلاثة، بأخيهم الأكبر المُسَجَّى فوق التبن. لم ينبس أحدهم ببنت شفة، وكأنهم كانوا يتوقعون شيئاً كهذا... وأخرجهم من وقْع هذه المفاجأة صوت طرقات على باب المخزن. فنظروا إلى والدهم يسألونه في حيرة وتردد:

- أمُّنا بالباب تنتظر في قلق، بماذا نجيبها!!

قال الأب بصوت منكسر، وعيناه مصوبتان ناحية الأستاذ:

- فلتنتظر قليلاً، ثم نشرح لها ما جرى. لكن تصرفا معها الآن إلى أن ترى بنفسها.

خرج محمد وحيد. كانت أمه وأخته في الفناء المظلم تنتظران في قلق وانفعال، وبمجرد خروجه، تقدمتا نحوه وسألتاه:

- خيراً إن شاء الله، من القادم؟ ولماذا دخلتم بيت المخزن؟!

أجابهما:

- أرسل أخي سلاحاً ثقيلاً غنموه في الجبهة. وقال يجب أن نخبئه في المخزن. هيا، انصرفا من هنا. أمي تعرفين أن بالبيت غرباء، ثم إن كل واحد منهم يسمع أقل همسة... هيا يا أمي، هيا اذهبي.

لم تطمئن الأم والبنت لهذه الكلمات، وانصرفتا على مضض. كان القلق والتردد يسيطر عليهما. تَتَبّعهما محمد وحيد بنظره وقلبه ينفطر لرؤية أمه وقد ارتسم عليها الحزن... وتنهمر دمعتان من عينيه، فيجففهما بيده ويدخل المخزن.

انحنى محمد فريد فوق رأس أخيه الجريح، ومسح الدماء عن وجهه بقطعة قماش... بينما خرج محمد مزيد وهو مضطرب، وجرى ناحية البيت لعله يتمكن من عمل شيء.

تكلم الرجل الذي جاء بالأستاذ، حكى ما أصابه قائلاً:

- كنت أتلو القرآن ليلاً. كانت عيناي تغفوان، وأنا أجاهد نفسي كي لا يغلبني النعاس. ثم حملت المصحف الشريف

ووضعته في مكانه، وانزويت في ركن واستندت بظهري إلى الحائط، وبدأت في ترديد الذكر. أثناء ذلك غفت عيناي ورأيت رؤيا: مكان شديد الظلمة وفي هذا المكان المظلم صوت سلاح... وأنا أجري في الظلام، أجري بكل قوتي، فأرى من بعيد نوراً فوق ربوة أحال المكان كله إلى نور وضاء... بدأتُ أجري في اتجاه النور. كان صوت السلاح يقترب... جريت في الظلام فوصلت إلى الربوة في قفزة واحدة... آه يا إلهي... كان هناك شخص ذو مهابة يقف وفي يده عصا، وينظر إليّ بتركيز وغضب، وقد أحال نور وجهه الظلمات كلها إلى نور... لقد عرفته، يا ربّ... أخيراً رأيته وإن كانت رؤيتي له في منام... إنه شيخنا... جريت نحوه أريد الاقتراب منه، وهو يقول لي:

- قف هناك، وانظر وراءك!

كنت أنظر ورائي وأنا منفعل... ربوة أخرى... هناك أيضاً يتدفق النور. وأذكر أنني رجعت إلى شيخي وأنا خائف أنظر إليه... كان لا يزال ينظر إلي النظرة المركزة نفسها. ثلاث مرات يشير بالعصا البيضاء التي في يده، إلى الربوة التي تلمع أمامه مثل النور، ويقول:

- اجْرِ إلى هناك. اجر دون توقف... هناك من ينتظرون

المساعدة... اجْر. اجر الآن. حذار أن تتأخر، انهض... انهض... انهض...

فاستيقظتُ مشدوهاً، وانتفضتُ، كان كل جزء فيّ يرتعش. لا صوت. لا صدى. لكن ظننت أن كل حجرٍ كان يهمس لي قائلاً انهض، انهض، انهض وبدأ صوت سلاح يُسمع من بعيد... من بعيد جداً. صوت السلاح خلصني من النوم ومن الدهشة. فقلت: بسم الله، وتوضأت.

وصلتُ إلى أقرب منزل، وطلبتُ دراجة من الأسرة التي أعرفها، فأعطوها لي على الفور... أدهَشَهم أن أطلب دراجة في منتصف الليل. كانت أسرة مؤمنة، أعرف أفرادها جيداً. وخرجتُ إلى الطريق وكأنني أقفز بالدراجة... صدِّقني يا شيخ كأن هناك أحداً يجر الدراجة. لم أكن أعرف إلى أي اتجاه أنا ذاهب. وقرب الصباح وصلتُ إلى ربوة... يا إلهي، إنها الربوة التي رأيتها في الرؤيا... صليت الفجر وأخفيتُ دراجتي بين الأدغال والأشجار، وبدأتُ في صعود الربوة، كان صوت السلاح يأتي من أعلى بين الحين والآخر. وأثناء صعودي الربوة، سمعتُ صوت من يصرخون ويصيحون على الساحة... كان الأستاذ يرقد على الأرض مضرجاً في دمائه... كنتُ أرقبهم خلسة من مكاني. وبعد قليل جاء أتباع حزب

الشعب. كانت النساء تبكي وتُمطر الأستاذ بالحجارة. وفهمتُ أنهن من أتباع حزب الشعب. وفيما بعد، ظهرتُ ووجدتُ السبيل لتهريب الأستاذ.

حكى الرجل الحكاية كلها وسكت... صمت الشيخ برهة ثم التفت إليه وقال:

- الحمد لله، الله أكبر، إنا لله وإنا إليه راجعون... لكن ماذا لو كانوا قد عرفوك؟...

أجابه الرجل:

- كل شيء سيكون بإرادة الله. أنا لا أخاف من الكفار. إنما من غضب الله فقط... هيا أستودعكم الله، حاولوا أن تجدوا له طبيباً... على كل حال فإن الصباح قد أوشك... يجب ألا يراني أحد وأنا أخرج من هنا. هنيئاً لك أيها الشيخ، أصبح ابنك مجاهداً في سبيل الله، أرجو أن يكون الله قد أحسن به إليك. والواقع أن ذلك العميل الخائن الذي أصاب الأستاذ قد نَفَق. والآن يجب أن أنصرف... تصرفوا بحذر حتى لا تثيروا شكوكهم، ولا تدَعوا من يثير ريبتكم يعرف ما حدث.

قال الرجل هذا وغادر البيت.

* * *

علِمَت والدة الأستاذ وأخته بالحادث في الليلة نفسها. في بادئ الأمر أصابهما الجزع، لكنهما سرعان ما تمالكتا نفسيهما، وعملتا على مساعدة الأستاذ. ليس في تلك الناحية طبيب مؤمن بتاتاً، بتاتاً بمعنى بتاتاً. فإما طبيب خائنٌ، أو جبانٌ، أو أحمق يعيش بزعم أنه محايد.

وقف الشيخ مُريد وأفراد أسرته عاجزين، عن أن يتدبروا أمرهم. فلم يكن بوسعهم عمل شيء. لم يفتح الأستاذ عينه ولا للحظة واحدة. كل البيوت من حولهم تغصُّ بالشيوعيين الخونة... وسُقِط في أيديهم.

ووسط هذه الحيرة، سمعوا طرقاً على الباب. فتبادلوا نظرات الدهشة... وتقدم الشيخ ناحية باب الفناء بخطوات مترددة... بينما استعد الأبناء ببنادقهم؛ وهي بنادق صيد، ووقفوا متأهبين. أمسك الأب الباب بيدين مرتعشتين، وصاح:

- من الطارق؟!.

جاءه الرد بصوت ضعيف وخافت جداً:

- أنا يا أبي، أنا محمد شهيد. أرجوك، افتح الباب.

تجمد الأب في مكانه متمتماً:

- كيف يحدث هذا، يا ربِّ... إن الحمد لله.

كرَّر محمد شهيد الطَّرق على الباب، ففتحه الشيخ بيديه المرتعشتين من فرط الدهشة، ونظر إلى ابنه نظرة شوق، ثم تعانقا.

كان محمد شهيد يغطي رأسه بغطاء كبير، والابتسامة تعلو وجهه، ويمسك في يده حقيبة يد وحقيبة سفر... أغلق الأب الباب بالسلاسل، ورجع إلى ابنه مشيراً إليه أن يصمت. ثم تقدم ناحية مخزن التبن، وخلفه محمد شهيد وقد تملكته الدهشة. وقبل أن يبلغا المخزن تضاعفت دهشته عندما رأى أخويه مزيد وفريد متأهبين بسلاحهما، وكأن في الأمر شيئاً. أما الأخوان فلم يتمالكا نفسيهما من الفرحة لرؤية الدكتور محمد شهيد، فتعانقوا بشوق، والحيرة تملأ وجوههم. ودخلوا المخزن. ترك محمد شهيد حقيبة السفر التي في يده واستدار إليهما قائلاً:

- ماذا هناك، أستحلفكم بالله، لماذا تنظرون إليَّ هكذا. وما هذا السلاح الذي تتأهبان بحمله؟ هل بدأ الجهاد هنا أيضاً؟... ولماذا جئنا إلى مخزن التبن ولم ندخل إلى البيت؟!!

وقف الجميع مطرقي الرؤوس، فاقترب والده منه، واصطحبه ناحية التبن، وهو يقول:

- اخفض صوتك يا بني، سأخبرك بكل شيء... تعال معي إلى تلك الناحية.

ثم أشار إلى الأستاذ سيد الراقد على الفراش، مغطى باللحاف، وقال:

- جُرح أخوك في الجهاد جُرحاً خطيراً. وقد نقلناه سرّاً إلى هنا لنُخبئه. لقد جاؤوا به الليلة. وخير أنك جئت. فقد كنا نبحث عن طبيب. لكن الله سبحانه وتعالى أرسلك لنا. الحمد لله. الأمل في الله لا ينقطع. وإن كنت لا أظن أن أخاك سيعيش، لأنهم أصابوه في رأسه برصاصة اخترقته وخرجت من الناحية الأخرى.

كان محمد شهيد يستمع إلى والده مشدوهاً. ثم تقدم ناحية أخيه، وكشف اللحاف عن رأسه، وأمعن النظر إلى أخيه المُسجَّى فوق الفراش، غائباً عن الوعي، لا يدري ما يدور حوله. فانهمرت الدموع من عينيه، ولم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء. وبعد فترة استعاد هدوءه، وانتفض من مكانه، واندفع بسرعة ناحية حقيبته في ركن الغرفة... عليه أن يبذل قصارى جهده لإنقاذ أخيه. رغم شِدَّة الإصابة، فإن الأمل معقودٌ على الله أولاً وقبل كل شيء... سيبذلون جميعاً كل ما في وسعهم لمساعدة أخيهم وإنقاذه... يجب أن يعيش لخدمة قضيتهم... قضية الإسلام.

مرت بضع ساعات، وانتهى الدكتور من عمل إسعافاته، ثم التفت إلى والده الواقف إلى جواره، فوجده مهموماً ومستغرقاً في التفكير... واستدار ناحية أمه، فوجدها شاحبة الوجه، مرهقة، تعلو وجهها تساؤلات كبيرة.

(أمي)، قالها بهدوء وهو يتقدم ناحيتها:

- أمي، لا تحزني، ستتحسن صحته بإذن الله. ادعي له، واشكري الله أنه لم يُصَبْ في عمل يُغضب الله، لقد أُصيب في سبيل الإسلام، وفي سبيل مرضاة الله... ماذا لو كان ابنك يُغضِب الله!!

قال هذا ثم اتجه إلى والده، وقال بصوت خفيض:

- أبي... لقد هرَبْتُ...

فانتبه الأب وقال بصوت تملؤه الدهشة والحيرة:

- أنت أيضاً؟!... لماذا!!.

* * *

هروب محمد شهيد!

تنفَّس محمد شهيد بعُمق، وبدأ يحكي بصوت هادئ، قال:

- كان القتال يدور هناك كل ليلة. وكنا نحن الأطباء مكلفين بمعالجة أولئك الذين يُقاتلون إخواننا المسلمين الضعفاء. وبذلك كنا نشكل بالنسبة لهم السَنَد والدعامة؛... بالشكل الذي تفهمه. كان إخواننا المجاهدون، يطلقون نيرانهم على العملاء، واضعين الموت في اعتبارهم... ثم نقوم نحن - من منطلق وظيفتنا - بمداواة هؤلاء العملاء!!! كان وجداني يرفض هذا، وعيناي لا تعرفان النوم... الألم يعتصرني... وذات ليلة، رأيتك يا أبي في منامي... رأيتك في حالة شتات... تُحدِّق فيَّ بغضب وتسألني:

- متى سترجع؟

عندئذ أدركت أنه أوان هروبي. كنت قبل أيام قد عقدت الصلة مع المجاهدين. وكان المجاهدون يخطفون في كل ليلة عدداً من الضباط والعساكر والرقباء والعملاء، ويصعدون بهم إلى الجبل... وذات يوم أرسلوا إليَّ رسالةً بموعد هجومهم المقبل، وأنهم سيهرِّبونني معهم إلى الجبل. وتهيأت لهذا.

وفي الموعد المحدد كنت مع أطباء آخرين، في الكوخ الذي نقيم فيه، ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن اعتزامي الهرب. وفي منتصف الليل هجم المجاهدون على الكوخ، فارتعد الجميع عند رؤيتهم.

قال المجاهد الذي اتضح فيما بعد أنه قائدهم:

- جئنا لنأخذ طبيباً... من كان منكم طبيباً فليتقدَّم.

لم يتحرك أحدٌ من مكانه. فسحب قائد المجاهدين العسكري المناوب الذي معنا وتقدم به إلى وسط الحجرة، وسأله:

- أين الأطباء منهم؟ هيا تكلم وإلاّ قتلناك.

أشار العسكري إلينا وقال وهو يرتجف من الخوف:

- ليس لي ذنب... هذا وهذا... كلهم أطباء، وقد جعلوني مناوباً بالرغم عنّي.

قال المجاهد وهو يُدير مسدسه ناحيتي:

- تقدم أمامنا، فلدينا جريح. اجمع كل ما يلزمك واعلم أنك إذا نطقت بحرف واحد، تكون أنت الجاني على نفسك.

وبهدوء شديد جمعت كل متعلقاتي. كان الأطباء ينظرون إليَّ نظرة يملؤها الألم. وحمل أحد المجاهدين حقيبتي، بينما

حمل آخر حقيبة السفر. وخرجنا تحت ستار الليل... وسلكت طريقاً معهم إلى هنا، قطعته في بضعة أيام. وهكذا هربت يا أبي.

رفع الأب رأسه وتنهّد ثم قال:

- خيراً فعلت يا بني. من الآن سنُخَبِّئ اثنين؛ أنت والأستاذ. أحسنت أنك لم تهرب من تلقاء نفسك، وإلا لثارت حولك الشكوك، فيأتون إلى بيتنا يفتشونه... أدعو الله أن يكون في عوننا.

فردد كل من في الحجرة في صوت واحد (آمين).

بدأ الأستاذ يئن أنيناً مكتوماً، وهو ملفوف في الضمادات، فالتفتوا إليه فرحين بنجاته. كان جرح الأستاذ عميقاً، وكذلك كان حزن أسرته وإخوانه المجاهدين، وإحساسهم بالعجز وقلة الحيلة يعتصرهم.

أخذت الأم تُمشِّط لحية الأستاذ بأصابعها، فبدأ يئن مرة أخرى بصوت واهن، وتمتم ببضع كلمات... فأصغت إليه أمه، ولم تفهم شيئاً مما تمتم به... ثم غاب عن الوعي ثانيةً.

سمعت الأم صوت نقر من ورائها، كأن أحداً يدخل من نافذة الغرفة، فالتفتت وصاحت:

- من أنت؟

كان القادم هو محمد شهيد. أشار إليها أن تصمت، وقال وَهو يجثو إلى جوارها:

- أنا يا أمي. لا تضطربي. لا ترفعي صوتك وإلا أوقعت بنا. فريد ووحيد يقفان بالباب... أرجو الله العليم ألا يدخل علينا من لا يعلم بحالنا... أراك مضطربة بلا سبب.

- وكيف لا أضطرب يا ولدي؟!... أتدري أن الأوغاد لا يغفلون عن مراقبة بيتنا لحظة واحدة.

فأجابها:

- سمعتُ بهذا الأمر يا أمي. وسمعت أيضاً ما قاله خالي، وسخرياته... لا تخافي يا أمي، فالله معنا... عندما يسترد أخي بعض وعيه، سأصعد به إلى الجبل. لأن الصعود به الآن غير ممكن، فهواء الجبل بارد ويلهب جرحه، ومستحيل أن نجد هناك بعض ما نحتاجه، لهذا فالبقاء في البيت بالنسبة لحالته الراهنة، يعتبر جيداً بصفة مؤقتة... لقد استفدنا كثيراً من مساعداتك يا أمي، وما كنتُ فاعلاً شيئاً بدونها.

أطلقت أمه تنهيدة عميقة، ثم قالت:

- اسكت يا بني، اصمت. لا تنبش جراحي أكثر...

وأرجوك لا تدع هذا الإبليس خالك... لا تذكرهم أو تذكر اسمهم بعد الآن.

* * *

مرت الأيام، وبدأ الأستاذ يسترد وعيه بالتدريج... إن بقاءَه على قيد الحياة لمعجزة بحق. فقرروا أن يصعدوا به الجبل، ومن هناك ينقلونه إلى باكستان مع المجاهدين، حيث سيجد من يعالجه بشكل أفضل. ومن الضروري أن ترافقه أمه الوفية الصابرة... فهي عون كبير لهم. تعمل ليل نهار من أجل أبنائها بدون كلل أو ملل. وعندما يأتي الليل ينام كل من في البيت، بينما تظل هي مستيقظة، ترقب باب الغرفة التي يرقد فيها ابنها، وتدعو له.

وفي إحدى الليالي، خرج الدكتور محمد شهيد وأمه، ومعهما الأستاذ محمولاً فوق نقالة، ورافقهم عدد من المجاهدين، وخرجوا جميعاً في طريقهم إلى الجبل. تُرى... ماذا كان في انتظار هذه العائلة المؤمنة المبتلاة.

وقع عبء البيت كله على كاهل أختهم (قُمري كول). كانت تقوم بكل مهام البيت؛ تحلب الأبقار تخبز في الفرن، تُعد الزبادي والجبن، تعتني بالدجاج والديوك الرومية، وفي الوقت نفسه، تقرأ القرآن لساعات طوال، وتبتهل إلى الله بدموعها،

أن يكون في عون إخوتها، ويكتب النصر للمجاهدين. كانت تتفانى بكل كيانها في خدمة والدها وإخوتها الثمانية... ألا تتعب!!.. مستحيل، فالتعب لا يخطر لها على بال. كل إخوتها يحبونها حباً جماً، ويُحَلِّقون حولها مثل الفراشات، ولا يقطعون رأياً في أمر بغير مشورتها، ويتفانون في إسعادها. لم تلتحق (قُمري كول) بالمدرسة أبداً. لكنها بعلمها وثقافتها، تفوق طالبة في الثانوي، بل وفي الجامعة. فهي فتاة وقور، مؤمنة، حساسة، وذكية.

كنا نحن اللاتي تعلمن في المدرسة، يعترينا الشعور بالخجل عندما نجلس مع (قُمري كول) ومثيلاتها من البنات. كان النور يفيض من وجهها كأنه فيض علم. تخرج الكلمات من بين شفتيها مثل حبات اللؤلؤ، حبة تلو أخرى. فتعمل عملها في القلب بسرعة.

اجتمعنا في بيت (قمري كول) ابنة الأم المؤمنة التي هاجرت إلى باكستان، والتففنا حولها... كانت تتكلم وتنطق الكلمات بحزن وبطء... كلمة... كلمة. كانت تحكي حكايتها أحسن من أمهر الكتَّاب... جعلتنا نشعر وكأننا عشنا تلك الأحداث. لم تغفل ذكر أدق التفاصيل، حتى تُشبع لهفتنا لمعرفتها... كانت تحكي ونحن مشدوهات، لصبرها وثباتها.

لم تذرف دمعة واحدة وهي تقُصُّ حكايتها... لم تتفجع، إنما كانت تردد من حين لآخر: - يا ربِّ، ألهمنا الصبر وارض عنا.

* * *

حكاية قُمري كول

صعد أخي الأستاذ وأمي إلى الجبل. وبينما نحن في الدار، انهمر علينا المنافقون من أقاربنا وجيراننا،... كانوا كثيرين مثل المطر. زادوا من حدة توتري عندما قالوا:

- إننا نعرف إلى أين ذهبت أمك... تكلمي، لا تخافي... فنحن عون لك. فكنت أتشاجر معهم، ليس هذا فقط، بل كنت أحياناً أطردهم من البيت... كنت وأبي وبقية إخوتي عاجزين عن التصرف معهم. نزلت أمي من الجبل، وسافر أخواي محمد شهيد ومحمد سيد إلى باكستان، وقد أسعدنا سفرهما. وطمأنَنَا.

وفي يوم من الأيام، اقتحم فجأة أشخاص مسلحون بيتنا في وقت الظهيرة. فوقفت - وأنا أغطي وجهي - أنتظر أن ينتهوا من تفتيش البيت. وقد فتشوه بدقة... ورفعوا بندقيتَيَ الصيد اللتين نمتلكهما، من فوق الحائط وأخذوهما... ثم التفت الضابط إلى والدي وسأله بصوت عال:

- تكلم... أين ولداك؟

أجاب والدي وهو رابط الجأش:

- ها هم أبنائي جميعاً يقفون في فناء الدار.

لكَزَه الضابط في صدره بمؤخرة البندقية التي في يده، وضربه ضربة قوية طرحته أرضاً. فأرادت أمي التصدي له، لكني أمسكت يدها لأمنعها، وقلت لها:

- لا يا أمي. إنهم أنذال، ولن يتورعوا أن يمدوا أيديهم إليك بالأذى... فتذرعي بالدعاء.

وقفت أمي باكية، وكان الزبد يتطاير من فم الضابط وهو يصرخ قائلاً:

- أيها الرجل القذر، إني أسأل عن ابنك الجريح، وابنك الطبيب الذي هرب من مكان عمله بعد تدبير... أين هما؟ ألا تتكلم!! اعلم أنهما حتى لو أصبحا طائرين وطارا في السماء، فلن يهربا من قبضتي... ثم لماذا تحتفظان في البيت ببندقيَتي الصيد؟!.

حمل والدي أخويَّ محمد مزيد ووحيد وأجلسهما فوق الفرن. همَّ أخي وحيد أن يتكلم، فاندفع إليه والدي وأسكته، ذلك لأن وحيد كان يمكن أن يتكلم تحت تأثير القوة. ومعنى هذا أن يعرف العملاء كل شيء... كان موقفنا صعباً. قال والدي:

- نحن لا نعرف شيئاً عنهما ولا نعرف أيضاً ما الذي فعلاه.

ارتفع صياح الضابط وصرخ قائلاً:

- إنك كذاب... اسمعني... كنا نود قتل ابنك. لولا أنه أفلت منا. ثم علِمْنا أنه على قيد الحياة، وأنك تخبئه في هذا البيت. وكذلك ابنك الآخر... اكشف لنا عن مكانهما وإلا ساءت عاقبتك فلا نجاة لمن يخوننا لن يترك خالقنا تراقي (حاشا لله) هؤلاء الخونة بغير عقاب. لقد منَحَنا حياة جديدة. إنه خالد. ونحن نقتل كل من يتعرض لاسمه بسوء. انتبه... فإن الأبوّة ستقودك إلى الخطأ.

ثم التفت الضابط إلى إخوتي الثلاثة، فريد ومزيد ووحيد، وكانوا واقفين بجوار والدي وهم يرتجفون فزعاً، ويحاولون ضبط أنفسهم، وقال لهم:

وأنتم، وأنتم أيها اللاجئون الصغار، لقد تغيبتم كثيراً من المدرسة هذه الأيام... تكلموا، أين أخواكم... لقد مددتم لهما يد العون، أليس كذلك؟

فانبرى أخي وحيد قائلاً للضابط ومن معه:

- صدقوا، إننا لا نعرف عنهم شيئاً. لقد بحثنا وسألنا كثيراً عن أخي الأكبر الأستاذ سيد ولم نعرف عنه أي شيء. وقد

عرفنا منك تواً أنه جريح. مبلغ علمنا أن أخي الطبيب يداوم على عمله. ولا نصدق أنه هارب. رد الضابط على ذلك بقوله:

- أيها الثعابين الصغار. إنكم لا تَقلّون خطراً عن أخويكم الكبيرين. إننا نعلم أنهما موجودان الآن هنا في البيت. لا بد وأن نقبض عليهما... فليختبئا ما شاء لهما الاختباء....

ثم صاح في جنده قائلاً:

- هيا، فتشوا البيت مرة أخرى، وبعد ذلك انصرفوا، وسوف نلتقي بهؤلاء الخونة فيما بعد.

عاد هؤلاء الجنود بعد ذلك مرات ومرات ليفتشوا البيت. وتكررت إهاناتهم لنا. ولكن كل جهودهم ذهبت عبثاً. وبذلت أسرة خالي كل ما في وسعها لإيذائنا، ورغم هذا لم نضعف وصبرنا في مواجهتهم بكل ما أوتينا من عزم.

* * *

مضى وقت طويل على ذهاب أخويَّ إلى (بيشاور). ومات تراقي[1] أثناء ذلك، وكان دمية. جعل الله مأواه جهنم وبئس

(١) نور الدين تراقي الذي أطاح بحكم محمد داود في نيسان (أبريل) ١٩٧٨م. وهو مؤسس حزب الشعب الديمقراطي عام ١٩٨٢م، وكان مدعوماً من الروس، وله كتابات في الماركسية اللينينية صدرت في الهند بلغة الباشتو. ظل يحكم حتى أطاح به كارميل سنة ١٩٨٩م.

المصير. وجاء مكانه أمين[١] وضعوا بيتنا تحت المراقبة. وعاث أنصار أمين في الأرض فساداً، في حين قُطع دابر أنصار تراقي، ولم يبق لهم أثر. وفي ذلك الوقت، دب الشقاق بين أخوالي وناصب بعضهم بعضاً العداء. فمنهم من يناصر تراقي، ومنهم من يؤيد أمين وكان عداؤهم فيما بينهم راحة لنا. رجع أخي الطبيب من بيشاور، بعد أن أدخل أخي الأستاذ مستشفى للمهاجرين هناك، وطمأننا على تحسن صحة الأستاذ، وقد أسعدنا سماع ذلك. بالغ أمين في اضطهاد المسلمين، حتى لاقوا الويلات، فقد اقترف كل أنواع الظلم. وكان أخي محمد شهيد مع المجاهدين ليل نهار، يضمد جراحهم، ويُسهم في الهجوم على الكفار. اغتيل أمين وبذلك قُضي على دمية أخرى من دمى الكرملين، وأتوا بالخائب بابراك من موسكو ليتولى مكان أمين. كان أنصار حزب الشعب يبحثون عن ثغرة يهربون منها. بينما كان البرشميون، قرود الشيوعية، أمثال بابراك، يرقصون فرحاً. كان الضرب ينهال على أنصار حزب الشعب فينبحون كالكلاب. وكان بابراك يوجِّه حديثه إلى الشعب الأفغاني عبر راديو موسكو قائلاً:

(١) حفيظ الله أمين نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية في فترة حكم تراقي، وهو المسؤول عن تنظيم حزب الشعب داخل الشعب.

- يا بَني وطني. يا من غادرتم بيوتكم وتحاربون في الجبال ظلم أمين... تحاربون وأنتم حُفاة، جياع، عُراة لرفع الظلم. آن الأوان لتنزلوا الآن من الجبال... فاليوم يومنا... لتتكاتف أيدينا ولنعمل سوياً.

نعم، تولى بابراك مقاليد الحكم ببساطة لتحقيق هدف واحد، ألا وهو استدراج المجاهدين الذين اعتصموا بالجبال، يقاومون منها الحكم، الذي عجز عن إنزالهم بقوة السلاح. تُرى كيف يعتقد هؤلاء الكفار أن المسلمين حمقى ورجعيون ومشعوذون وذوو عقول عنكبوتية، ومن السهل خداعهم!!!.

* * *

خابت توقعات بابراك والروس وحدث عكس ما توقعوا تماماً. فلقد انضم الناس إلى صفوف المجاهدين بحب وحماسة كبيرين. خرج المهاجرون من أفغانستان أفواجاً. وقاد المجاهدون العمل. فمخازي البرشميين، ومجيئهم إلى السلطة بهذه البساطة وبهذا الخداع، حث كل المسلمين على الجهاد. ترك الإسلاميون حياتهم الوثيرة، وأخذوا يفتشون عن أنصار حزب الشعب الذين خارت قواهم بعد مقتل أمين، فيقتلونهم ويهجمون على مراكز العسكر، يغنمون منها الغنائم الوفيرة. كانت الولايات تسقط في أيدي المجاهدين، ولاية تلو الأخرى. وفَقَد حزب برشم أنصاره. وكانت

البنات والنساء السافرات، يفهمن كل ما يجري في البلاد من خلال البيانات التي توزع عليهن، فيرجعن إلى الحجاب من تلقاء أنفسهن، وبدون أدنى مشقة، ويأخذن دورهن إلى جانب الأخوات المسلمات. واندفعت البنات إلى الشوارع بالآلاف وعشرات الآلاف يطالبن بإقصاء بابراك وطرد الروس شرّ طردة، ويهجمن على أقسام الشرطة رافعات شعارات مكتوب عليها:

- أعيدوا إلينا حجابنا - لسنا نصرانيات - نريد السموَّ من جديد - بابراك يهودي ولن نسير عاريات مثل نساء اليهود.

* * *

عشرات المئات من المجاهدين يربطون القنابل حول خصورهم، ويلقون بأنفسهم تحت سلاسل الدبابات. في حين كان مقلدو الغرب والشيوعيون يتفاخرون بقولهم:

- كابل هي باريس الصغيرة، أو موسكو. لم يعد في كابل مكان لحجاب أو لحية.

وكان مقلدو الغرب في حرب دائمة ضد التقاليد والمجتمع، سعياً وراء التغريب، وأصبح المنافقون يتبرمون بقولهم:

- هل مسّت عصا الثورة، كابل أيضاً!!!؟

* * *

كان بابراك عاجزاً... جمع المجاهدون كل أسلحة حزب الشعب وكان أخي محمد شهيد يشن في كل ليلة، هجمات مع المجاهدين لجمع السلاح، فيقتلون المشركين والمرتدّين الذين يتطاولون على الإسلام. وقد هرب أبناء خالتي وأبناء عمتي منذ أول ليلة وصل فيها البرشميون إلى السلطة... بالطبع لم يتمكنوا من الفرار بأسلحتهم، لأن المجاهدين سيطروا على كل الطرق المؤدية إلى كابل. وكانوا يفتشونها بكل دقة واحترق أخي ألماً عندما علم بأمر هروبهم. كما هرب أكثر أنصار حزب الشعب إلى كابل ولاذوا بالبرشميين. وكان القتل مصير كل من فقد سلاحه... فكل سلاح بالنسبة للمجاهدين له قيمة قنبلة ذرية. ومعنى عدم وجود السلاح معهم كان يعني أن يطردوا من بلادهم. لكنهم قد تسلحوا الآن. كان كل شيء يتسرب من أيدي أنصار حزب الشعب. وهم في فزع عاجزون. وكان بعضهم قبل الهروب، يدفنون أسلحتهم في مكان ما. وبعد فترة يعود واحد منهم خفية ليحضر لهم هذه الأسلحة. إلا أن المجاهدين سرعان ما اكتشفوا هذه الحيلة. ولقد فعل أبناء خالي وأبناء عمتي الشيء نفسه. ذات ليلة جمع محمد شهيد إخوانه المجاهدين ودخلوا منزل عمتي. وطالبوهم بتسليم ما لديهم من سلاح. فأنكرت عمتي وزوجها وجود السلاح، وكان أخي أثناء ذلك ملثماً.. وعندما أنكر زوج عمتي

وجود السلاح دفعه أحد المجاهدين بكعب البندقية فطرحه أرضاً، وانهال عليه ضرباً. ورغم ذلك لم يُقرّ بشيء وقال:

- لقد عرفتك، أنت شهيد بن مريد! وأنا لن أَدَع هذا الأمر يمر دون أن تنال عقابك.

فقال شهيد محتدّا:

اسمعني، لأكُن من أكون فهذا أمر لا يعنيك، وأيضاً لا يخيفني. هات السلاح وإلا أخذته منك بالقوة. بناءً على ذلك اضطروا إلى تسليم السلاح له وهم صاغرون. كما سلّم أخوالي السلاح بالطريقة نفسها. وقد أفقدهم هذا التصرف صوابهم.

رَجع أخي الثاني (الأستاذ) من بيشاور. فلقد رفض البقاء هناك رغم إصرار كل الأطباء. كان يقول:

- محال أن أظل بعيداً ولا أشترك في الجهاد.

كانت حالته غير مطمئنة عند مجيئه إلى البيت. كان يغمى عليه من حين لآخر، ويظل يهذي في إغمائه الساعات ويردد:

النصر للمجاهدين. سيتم الله نوره. الله أكبر.

ولقد أحزننا مجيئه وهو مريض، لأن حالته كانت تسوء يوماً بعد يوم، وتشتد وطأة ما به.

* * *

خطيبة الأستاذ سيد فتاة من قرية بعيدة عن قَصبَتنا. وكانت حماته تزورنا من حين لآخر، فتظل تبكي ساعات طوال، وتدعو له. كان الجميع يحبون أخي، ويدعون له بالشفاء... لم تفارقه أمي لحظة واحدة، بل ولم يجف لها دمع. وقد أُسندت مهمة قيادة جبهتنا إلى محمد لحين شفاء أخي الكبير.

محمد شهيد، اسمٌ لن ينقطع ذكره أبداً. البرشميون والشيوعيون ينطقونه بخوف، بينما يردده المجاهدون بكل فخر. فلقد كان كل شيء أيام قيادته للجبهة، يسير على ما يرام. فالأم التي تشكو إليه من ابنها، تنزل من الجبهة وهي سعيدة بعد أن يعود الوئام بينها وبين ابنها. وفي عهده انقطع دابر الظلم، وانتهى العمل بالربا، وأعلن المرابون توبتهم النصوح، وأخلصوا فيها. وأعادوا الأرض إلى أصحابها الأصليين، تلك الأرض التي اغتصبها منهم تراقي عنوة، ووزعها على آخرين... وعادت البنات والنساء إلى الحجاب، كما عيَّن في كل مكان رجالاً للحث على أداء الصلاة... فأصبحت الصلاة تقام في كل بيت، ويُسأَل تارك صلاة الجمعة، وبدأ الرجال في الذهاب إلى المدارس لتلقي العلم. ويعلم بعضهم بعضاً قراءة القرآن الكريم. وينضمون للمجاهدين بمحض اختيارهم، كما قاموا بتدريب الفتيات على الجهاد، وقدموا المساعدات إلى العائلات المهاجرة. كان

الجميع شاكرين وسعداء بأخي. وكان يتولى بنفسه أعمال الزكاة والعشور.

* * *

ذات يوم نزف أخي الأستاذ فجأة، فأرسله محمد شهيد مع بعض المجاهدين إلى باكستان على وجه السرعة. أثناء ذلك، لم تكُف أمي عن البكاء... ودَّعنا أخي الأستاذ حتى الباب. كان محمد توحيد - أصغر إخوتي - يُلازم الأستاذ بصفة دائمة، لذا انتحب بشدة لحظة وداعه. لم يُقصرِّ الأستاذ أبداً في حبه لنا جميعاً. لكن حبه لمحمد توحيد، فاق حبه لنا جميعاً، فلطالما ضاحَكَه وداعبه. رجع محمد شهيد في المساء ومعه عدد من المجاهدين. كانوا مضطربين. بدا محمد شهيد متغير اللون. وأخذ في فرش البُسُط والفَرْش في الساحة خارج البيت. كان الوضع يوحي بأن شخصاً ما سيأتي. فكل واحد من الموجودين يتحرك في صمت. ثم رأيت المجاهدين يتقدمون نحو فناء بيتنا حاملين أخي الأستاذ ميتاً فغشي على أمي... نعم لقد استشهد أخي وهو في الطريق إلى باكستان، على أثر نزيف في المخ.

* * *

ازدحمت ساحة بيتنا بالناس. وجلس المجاهدون خارج البيت. بينما تدفقت النساء إلى البيت جماعة تلو أخرى.

وأفاقت أمي من إغمائها، وألقت بنفسها فوق جثمان أخي، وأجهشت بالبكاء، كنت بدوري أبكي وأنتحب لكن سلواي تجسدت في أن الشهداء أحياء... لا يموتون. جاء المجاهدون في الصباح ليشيعوا جثمان أخي إلى مثواه الأخير. قبَّلَتْه أمي في جبينه قبلة الوداع، كذلك فعل أبي. ثم فارقنا أخي إلى يوم القيامة... أطال والدي الشكر لله، وبيديه أودع أخي الثَرى... إن جرح الحزن عليه ما زال حياً بيننا لما يندمل بعد. لم تملك أمي إلا الانزواء في ركن من البيت، تبكي الساعات الطوال. وكان أبي يُسرِّي عنها.

* * *

طلبت جبهة (علي شانج) من جبهتنا، مجموعة من المجاهدين. وعلى الفور، أعد أخي مجموعة من المجاهدين. ووجههم إلى هناك. كان من بينهم أخي الذي يصغرني واسمه (محمد فريد). وانقضى شهر على ذهابه إلى الجبهة. وذات يوم كنت أُصلي صلاة العصر، وأدعو له؛ وإذ بصبي يندفع إلى فناء البيت وهو يصرخ ويقول بأنفاس متقطعة:

- أختي... أختي، لقد استشهد أخي الأكبر محمد فريد... تعالي وانظري... المجاهدون قادمون حاملين جثمانه.

تجمدت في مكاني... وسمِعَت أمي ما قاله الصبي،

فتسمَّرَت في مكانها، وعيناها مصوبتان ناحيتي... وبعد بضع دقائق ترك المجاهدون جثمان أخي وانصرفوا لنُلقي عليه النظرة الأخيرة. وكشفنا عن وجه أخي... رأيناه وكأنه قد نام لتوِّه. كانت يداه دافئتين، وتعلو وجهه ابتسامة حبور. احتضنت أمي يديه والدمع ينهمر من عينيها، وقالت تودعه لفراقه عينيها:

- اذهب يا ولدي صاحبتك السلامة. دعوت الله أن ييسر لك السبيل، وها أنت ذا قد انقلبت إلى أهلك مسروراً. اذهب يا صغيري، فأنا ما زلت أدعو لك. بلِّغ سلامي إلى سيدنا رسول الله ﷺ، واسأل الله أن يرضى عن والديك، وأقرئ أخاك الكبير السلام، وأبلغه أنني اشتقت إليه كثيراً، وانتظر يوم لقائنا. تُرى هل سيُكتب لنا أن نظفر بما ظفرتم به!! اذهب يا ولدي، عليك سلام الله ورحمته، إن شاء الله يكون لنا نصيب من هذا الطريق، إنني راضية، والحمد لله الحمد لله، الحمد لله.

بعد عدة شهور من استشهاد أخي محمد فريد، ذهبت أمي مع نساء من جيراننا، لخطبة فتاة من القرية، لأخي محمد شهيد، فرحب أهل الفتاة بأمي قائلين:

- إن طلبك هذا شرف لنا، من ذا الذي لا يرحب بزواج ابنته من فتى مثل محمد شهيد!!

وأعربوا عن موافقتهم بأسلوب في منتهى النبل والكرم. وبعد شهر، تم عقد القران وأتينا بعروسنا. وكانت هذه السعادة بلسماً لجراحنا، وامتلأ بيتنا بالسعادة.

* * *

أثناء ذلك، كان البرشميون لا يكفون عن مطاردة أخي للإيقاع به، والنيل منه حياً أو ميتاً. وكان أخي محمد شهيد يقتلع كل من يعترض طريق جهاده، ويقصف كل مفرزة يهاجمها. فأقض مضاجع البرشميين، وأعلنوا رصدهم مبلغ ثلاثة ملايين روبية أفغانية لمن يغتال محمد شهيد. وكنا دائماً نحذر أخي بأن يأخذ حذره.

ذات يوم رجع أخي إلى البيت وقال:

- أمي، لا بد من الهجرة. لقد جاوز البرشميون المدى، بل إنهم يدفعون نقوداً لبعض المنافقين.. هاجروا أنتم ولا تفكروا في أمري. وقبل هذا، سأذهب إلى باكستان، وأعود قبل تأهبكم للهجرة. كنت وزوجة أخي متفاهمتين تماماً، ومتعاونتين في كل ما نعمله. نأكل معاً، ونشرب معاً، ونتبادل ملابسنا معاً وقد أحبَّتْها أمي كثيراً. كانت فتاة عاقلة حقاً وكانت تساعدني في كل أعمالي. ولا تعرف أبداً معنى التعب، بل وتصرُّ على أن تتحمل أعباء البيت بدلاً مني، وتظل تعمل

بكل حب ورغبة. رجع أخي من باكستان بعد شهر من ذهابه، ورزق الله تعالى أخي بمولودة أنثى. وُلدت ونحن نتأهب للهجرة إلى أفغانستان. وكانت سعادة أبي بغير حدود، أما أمي فتقضي يومها كله بجوار المولودة. فقد كانت مثل كرة بيضاء... ما شاء الله. وبدا أخي في بادئ الأمر وكأنه حزين لكونها أنثى، لكنه بعد فترة عاد إلى طبيعته. وكنا جميعاً نتبادل حمل الطفلة الصغيرة التي لم تتجاوز عمرها بضعة أيام. كلنا متعلقون بها. كما استرد أخي الصغير توحيد حيويته، بعد أن كان يَزوِي حزناً بعد استشهاد أخي الأستاذ سيد. بدأنا في اختيار اسم للمولودة، ترى، ماذا نسميها؟. صاح أخي محمد وحيد:

- نُسَمِّيها كاملة، لقد سميتها كاملة، وليكن اسماً مباركاً.

أيَّدْناه جميعاً، ما عدا أبي. فقد رغب أن يسميها سيدة أو فريدة، على اسميّ أخويَّ الشهيدينِ. تمسكنا باسم كاملة، حتى لا يتجدد جرح أمي كل لحظة.

* * *

مضى أربعون يوماً على ميلاد كاملة، وكان الوقت ظهراً، عندما أقبل أخي محمد وارد، الذي لم أذكر اسمه من قبل. وهو هادئ الطبع، صامت، ضعيف البنية، يساعد أبي دائماً

ﻓﻲ أعمال الحقل. واندفع إلى فناء البيت وهو يلهث، ويداه متربتان. تدل هيئته أنه كان يعمل ﻓﻲ الحقل. وصاح وكأنه ينتحب:

- أخي، اهرب... اهرب... الروس قادمون... قادمون ناحية منزلنا مباشرة... أنا، أنا... لا يمكنني الرجوع... إنهم ﻓﻲ الطريق!... كان شهيد ووحيد ينظفان سلاحهما أسفل السقيفة. فصاحت أمي ﻓﻲ خوف وهلع:

- يا إلهي... كيف لم نسمع صوت دباباتهم؟! كيف جاء هؤلاء الكفار!! غمغم أخي قائلاً:

- إن مُشاتهم يهبطون من الطائرات... كنت أعمل ﻓﻲ الحقل مع أبي، وسمعتهم يسألون عن منزلنا. ومعهم برشميون... إنهم قادمون من الخلف. لقد جاؤوا ﻓﻲ فصائل متباعدة. آلاف الجند ينزلون من الطائرات... كلهم شاهرون أسلحتهم.

وقعنا ﻓﻲ شرك الغفلة. فمن وشى بنا، قد أَحْكَم الوشاية. ومن قبيل الحيطة، كنا قد حفرنا من قبل مخبأً ﻓﻲ الجدار تحسباً لمثل هذه الأحوال. وأقمنا جداراً خادعاً لحجرتنا، فهي الحجرة القريبة من حائط القلعة. وثبَّتْنا على هذا الجدار، رفّاً صغيراً، ليبدو لمن يراه من الخارج رفاً، وهو ﻓﻲ حقيقة

أمره نافذة. أي أن الحجرة أصبحت أضيق بعض الشيء، ولا يستطيع أحد أن يدرك وجود جدار ثانٍ. فإذا دفع أحد الرف بقوة، دخل الرف في الحائط وظهرت من خلفه حجرةٌ ضيقةٌ وطويلة. وحفرنا الأرض بحيث يجري ماء الوادي الضيق الواقع خارج القلعة، فيدخل الغرفة من ناحية ويخرج من الناحية الأخرى. فيُرَطّب هواءها في الصيف. ولا يمكن لأحد أن يلحظ مرور مجرى الوادي ببيتنا، لأن المكان حول قلعتنا محاط بالأشجار. وقد أقمنا هذه الغرفة المخبأ لنمنع البرشميين من كشف وَاغتصاب ما لدينا من أسلحة. وأيضاً من اختطاف إخوتنا الصغار بالقوة.

* * *

كان الروس يتقدمون نحو قلعتنا مباشرة في مجموعات متباعدة متتالية، قاصدين بيتنا، دون أن يتوقفوا عند أي بيت آخر. التفت محمد شهيد ناحيتي أنا وزوجته، وصاح:

- هيا أسرعا... اجريا... اهربا من هنا، يجب ألاّ يقبضوا عليكما أحياءَ. خذا الطفلة معكما، هيا... أستودعكم الله.

كنت أرتعش وأتحسس قدمي، بينما احتضنت زوجة أخي طفلتها، وهي تبكي. جمع أخي شهيد سلاحه، ودخل البيت مع أخويّ وحيد، ومحمد وارد. صحت في زوجة أخي:

- هيا، اجري، اجري واذهبي بابنتك إلى بيت جارنا فلان، وسألحق بكما تواً.

فقالت وهي تبكي:

- لا، لن أذهب، سأبقى هنا. أرجوك يا (كول). ولك أن تصدقي أنني أكاد أموت من الانتظار والقلق والرغبة في معرفة ما سيحدث؟.

صحت فيها بغضب:

- بل اذهبي، أستحلفك بالله يا عزيزة، اذهبي وإلاّ أخذك الروس. تعرفين أنهم يتعمدون أخذ النساء. وما العمل إن فعلوها؟ هيا اذهبي، أرجوك اذهبي.

خرجت عزيزة من القلعة ودموعها تغالبها. صعدت أمي إلى سطح البيت وأتت إلينا بالخبر اليقين:

- إنهم قادمون بأعداد غفيرة، هيا ادخلوا الغرفة المخبأ. دخل إخوتي الثلاثة الغرفة. وأعطيتُ لهم ثلاث مراوح. لم يكن الجو حاراً، لكن ضيق الغرفة قد يصيبهم بضرر، بسبب قلة الهواء. أراد أخي محمد وارد أن يأخذ إبريقاً، فقلت له:

- ماذا أنت فاعل به! أتَحمِله فارغاً؟ ثم إن الماء يصل إليكم من الجدول، وستخرجون من الغرفة في المساء بعد أن

ينصرف هؤلاء الأوغاد. كما أني وضعت لكم في الموقع ثلاث بطيخات.

همَّ أخي بدخول المخبأ وهو يضحك قائلاً:

- حسنٌ يا أختي الحبيبة، هيا بنا، أستودعكم الله.

فأجبته بدوري:

- وأنتم أيضاً أستودعكم الله.

غادرتُ بيتنا وأنا أبكي. ارتديتُ الملاءة الأفغانية، وأخذتُ أجري. رأيتُ الروس وهم في الطريق إلى قلعتنا. فمشيت متخفية بجانب سور القلعة. وأنا أرتعش، إلى أن وصلت إلى قلعة بجوار قَلعتنا. أثناء هذا حاصر الروس قلعتنا وتربصوا بها، ونصبوا الشراك في كل ركن وزاوية.

لقد تفرقت أسرتنا، فأخي محمد ميد يجاهد في جبهة أخرى، بينما تفرَّق إخوتي الأربعة الصغار، في قلاع مجاورة. دفعت أمي الرف بعد أن دخل إخوتي الكبار إلى مخبئهم. وغادَرت الغرفة وكأن لا شيء هناك. ثم دخَلَت حظيرة المواشي وأَخْرجَت منها بقرة وربطتها أسفل السقيفة، وبدأت تحلبها.

* * *

اقترب الروس من قلعتنا وأمروا مجموعة من الجند باقتحامها. استوقف الروس وهم في طريقهم إلى قلعتنا، فلاحاً فقيراً أباً لطفل صغير في السابعة - وكان الفلاح يمر من وراء المزرعة التي يقف أمامها الروس، قاصداً بيته، فسألوه سؤالاً عابراً عن قلعتنا وعن بيتنا. ولأن الفلاح يعرف والِدي معرفة وثيقة، كما أنه فلاح مؤمن ومجاهد. فقد هزَّ كتفيه في شجاعة وأجابهم:

- لا أعرف بيت من هذا، وكيف أعرف وأنا أسكن بعيداً عن هذا المكان.

صاح البرشمي الذي يضع قناعاً على وجهه:

- دَعْكَ من هذا وأفصح؛ قلعة من هذه؟

ثم قال روسي منهم يعرف قليلاً من الفارسية:

- دعه لي...

ثم استدار ناحية الفلاح وقال له:

- اسمعني، وأجب. أفي هذا البيت أعداء؟

صاح الفلاح المسكين قائلاً:

- لا، لا يوجد.

فقال الروسي:

- حسن، إذا كان الأمر كذلك، فسنأخذك معنا الآن إلى أن نتأكد. فإذا اتضح صدق كلامك، أخلينا سبيلك، وإن كان غير ذلك، قطعناك إرباً... هيا تقدم أمامنا.

وساقوا الرجلَ المسكين أمامهم، ويداه مربوطتان خلف ظهره. وفي الطريق توقفوا، وأعادوا سؤاله:

- ألا تتكلم!! هل في هذه القلعة أعداء أم لا؟

اعتصم الفلاح بربِّه، وكرر ما قاله من قبل:

- لا، لا يوجد، لا يوجد أعداء أبداً في هذه القلعة.

* * *

والدة محمد شهيد تُكمل الحكاية

اختبأ أبنائي في الغرفة الواقعة خارج البيت، ثم رَبَطتُ البقرة خارج السقيفة، وجريتُ إلى الباب مرة ثانية. وفجأة، وَجَدتُ نفسي أمام مجموعة من الروس. فاستداروا ناحيتي بأشكالهم التي تُشْبِه أشكال الخنازير، وغمغموا بكلام لم أفهمه. ثم وخزني أحدهم بالسلاح الذي في يده، وأشار لي أن أبتعد عن الباب. كنتُ أُحَدِّثُ نفسي وأفكر في أمر هؤلاء الروس، وتفتيشهم البيت، ثم خروجهم منه. أفسحتُ الطريق فدخلوا فناء البيت وانتظر خمسة منهم عند الباب، ودلف ثلاثة آخرون إلى الفناء.

دخلوا البيت مباشرة دون أن يلتفتوا يميناً أو شمالاً، وكأنهم وُلِدوا وتربوا بداخله. هرعت وراءهم، فلم يكترث بي أحد منهم. غريب ما يحدث... إنهم يمرون بالغرف غرفة تلو غرفة، ولا يقومون بأي تفتيش، ثم دخلوا الغرفة التي يختبئ فيها أبنائي... ودخلت وراءهم ورأسي يدور من القلق. توقفوا داخل الغرفة، وتبادلوا النظرات، وبدأ أحدهم يطرق بقبضة يده على جدران الغرفة. وجاء الدور على مخبئنا.

طَرَقَ الروسي عليه مرتين، ثم قال لرفاقه كلاماً بلغتهم. وعلى هذا، أخرج اثنان ألغاماً من الجراب المربوط حول خصريهما، وشرعا في زرعها في أحد أركان الغرفة... غامت عيناي، ثم استجمعت نفسي، وارتميت بكل قوتي فوق أحد الروس، وبدأنا نتصارع. فأخذتُ أضربه وألكمه بقبضتيّ، بكل قوتي. فانهال عليّ زميلاه ضرباً بمؤخرة بنادقهم ليخلصا زميلهما من بين يديّ. فتكوَّمتُ في ركن الغرفة... ووقف واحد منهم عند الباب، بينما وقف الثاني ينتظر بجواري.

كان الروسي الثالث مستمراً في زرع الألغام. واستجمعت نفسي مرة أخرى... ستُمزِّق الألغام أبنائي وهم بالداخل لا يعلمون من الأمر شيئاً استجمعت كل ما لدي من قوة، ووقفت على قدميّ، وهجمت على الروسي، فسقط آخر لغم من يده، ثم رفعتُ الروسي مثل الكيس، وأطحت به في الهواء، وصدَّقوا، أنه بالرغم من بنيته الضخمة، كان من السهل عليّ رفعه بهذا الشكل، وكأنه بالون منتفخ بالهواء. وطوَّحتُه في الهواء عدة مرات، ثم طرحتُه أرضاً، فأغمي عليه بدون أن يتلفظ بآهٍ واحدة.

كان الروسيان الآخران، ينظران إليَّ وقد استولى عليهما الذهول، وكأن هناك من يساعدني في الإطاحة بذلك الروسي

على الأرض. فهجمت عليهما وأنا أعض على نواجذي من الغضب. أدرك الروسي الواقف عند الباب ما حدث، ووجد السبيل لتخليصهما من قبضتي، بأن ضغط على زناد الكلاشينكوف التي في يده، فانهمر الرصاص بغير توقف. واصطدم بيدي شيء بارد، فصرختُ من الألم. وفي تلك اللحظة دفع أبنائي رفّ مخبئهم. كان الروسيان يحدقان نحوي وأنا مضرَّجة في الدماء. وعندما دُفع الرف للمرة الثانية، تعلقت نظراتهما المفزوعة بالحائط، وكان السهم قد نفذ. فقبل أن يتهيأ الروسيان ببنادقهما، كان ابني محمد شهيد، قد أسقط الرف على الأرض، واستدار ناحيتهما قائلاً:

– قفوا، أيها الكافرون الأنذال، ارفعوا أيديكم عن المرأة... حذار أن تمسوها بسوء!... لتكن تصفية حساباتكم معنا نحن.

قال هذا وأطلق النار على الروسيين فصرعهما. ثم عبر من النافذة الصغيرة إلى داخل الغرفة، ومن ورائه ابناي الآخران... كان اثنان من أبنائي يحملان سلاحاً، والثالث يمسك في يده قنابل يدوية. وانطلق ثلاثتهم إلى الخارج. كنتُ أَصيح وراءهم لأحذرهم:

احذروا... الباب... الروسي بالباب.

رأى ابني ذلك الروسي الذي أوقعتُه على الأرض، فأطلق عليه وابلاً من الرصاص. وزحفتُ حتى خرجتُ من الغرفة ووصلتُ إلى الباب، أما الروس الخمسة الذين كانوا عند الباب، فقد هرعوا ناحية البيت فور سماعهم صوت الطلقات، وقد أشهروا أسلحتهم. ووقع بصرهم على أبنائي أثناء خروجهم من البيت. لكن محمد شهيد كان مستعداً ويده على الزناد تحسباً للخطر، ويعاونه محمد وحيد، فأطلق الرصاص على الروس الخمسة، فصرعهم. ثم صاح شهيد في أخويه:

- إلى السطح... لنصعد إلى السطح، ثم نقفز خارج القلعة، هيا!...

كنت أرقبهم وأنا مضرجة بالدماء. وعاجزة عن اللحاق بهم، لم أستطع أن أنبههم، أن القلعة محاصرة من الخارج. وقبل أن أفتح فمي لأنبههم، كانوا قد صعدوا إلى السطح. كان الروس ينتظرون خارج البيت وأيديهم على الزناد. ودخل بعض الروس إلى الفناء ورأوا أبنائي وقد صعدوا إلى السطح. فانهمر الرصاص على صغاري من الجهات الأربع. وانبطح الإخوة الثلاثة فوق السطح، وأطلقوا الرصاص على الروس الذين في فناء البيت. كان الروس يتساقطون واحداً تلو الآخر،

فينفق الواحد منهم وينتهي أمره. أما الروس الثلاثة الذين أفلتوا من الرصاص، فقد رأوا ما حدث ولاذوا بالفرار وتمكنوا من مغادرة الفناء أحياء.

كانت عيناي تتطلعان إلى صغاري فوق السطح، أنا أتلوى من الألم. رفع محمد وحيد رأسه، ونهض من مكانه، ونظر، ثم صاح:

- يا أخي، يا أخي، ها هي ذي مجموعة أخرى من الروس تربض هناك.

فأجابه شهيد بقوله:

- اضرب بالقنبلة اليدوية، القنبلة اليدوية. هيا بسم الله، لا تخافوا، الله معنا، يجب ألا نقع في أيديهم سواء كنا أحياءً أو أمواتاً.

فصاح وحيد مكبراً (الله أكبر، الله أكبر) ووقف على قدميه وفي يده القنابل اليدوية، وأطاح بالقنبلة على الروس، بكل ما أوتي من قوة فسُمع صوت انفجار مخيف، مصحوب بصرخات وصياح. ولدي.... روحي... كبدي... صغيري وحيد، انهمر عليه وابل من الرصاص وهو يردد (الله أكبر، الله أكبر). ورأيته وهو يهوي من فوق السطح إلى داخل الأيكة، مضرجاً بالدماء القانية. أردتُ أن أصرُخ لكن صوتي احتبس. كنت أتلوى

وسط الفناء. وأجاهد أن أستجمع نفسي، وأفكر أنني قد أفقد وعيي في كل لحظة، فكنت أعضُّ بأسناني على شفتيّ..

ثم رأيت ابني الثاني محمد وارد. آه يا ربَّ، كان موفور الشباب، رقيقاً، طاهراً، ونقياً مثل الزهرة. تأوهت حين رأيته فألقى نظرة ناحيتي وقفز مثل أخيه وحيد وهو يصيح مكبراً (الله أكبر، اله أكبر) وألقى بالقنبلة اليدوية التي أعدوها بأنفسهم، ثم قفز وراءها خارج القلعة. أثناء ذلك كان الرصاص ينهمر عليه. لكني لم أر هذا، وكنت آمل أن تكتب له النجاة. ومن ورائه قفز ابني الأكبر محمد شهيد، ورأيته وهو يلقي بالقنبلة مردداً: (الله أكبر، الله أكبر).

كان صوت السلاح يدوي في كل مكان. وانعدمت الرؤية تماماً بسبب كثافة التراب المتصاعد، والبارود. وزحفت حتى وصلت إلى الباب. لم أكن أعرف كيف أتجاوز جثث الروس الملقاة في فناء البيت. الدنيا تدور بي... وكأن كل شيء يدور معها. الآن لم تعد عيناي تبصران شيئاً. كنت أزحف مثل العمياء، أنكفِئ... ثم أواصل الزحف. كذلك أذناي. وكأن بهما صمماً، لا تسمعان شيئاً. لا أعرف كم زحفت، نصف ساعة، أم ساعة. وعندما لمسَت يداي ماءً، أغمي عليّ وغبت عن الوعي.

* * *

قُمري كول تُكمل الحكاية

أثناء ذلك كنت أنا وعزيزة زوجة أخي وكاملة، نختبئ في منزل جارتنا. كنا نرتعش من شدة الانفعال، ونرتعش مع صوت كل طلقة يترامى إلى آذاننا صوتها. كانت جارتنا تتابع من برج القلعة، كل ما يجري خارجها. وبعد ساعات، سكت صوت السلاح.

كان صاحب البيت الذي اختبأنا عنده، قد رأى كل ما حدث، لكنه كتم الأمر عنّا. فقد دخَلَتْ مجموعات من الروس، القلعة بعد أن قتلوا كل إخوتي. وفتشوا كل الغرف، ثم زرعوا الألغام أسفل جدران القلعة كلها، من أولها إلى آخرها. وأطلقوا الرصاص على الأبقار، ثم استداروا على الدجاج، والديوك الرومية، والبط، والغنم، والخراف، وجعلوها هدفاً لطلقاتهم الوحشية. بعد ذلك جمعوا جثث زملائهم المبعثرة في فناء البيت وخارجه، وهم يطلقون صرخاتهم، فتدوّي وكأنها نباح كلاب. ثم ربطوا جثث موتاهم في حصير الأرائك التي في الفناء وألقوا بها إلى الدبابات التي جاءت فيما بعد. وكانت مجموعة أخرى من الروس، تجمع الأشلاء التي مزقتها القنابل اليدوية، وتضعها في الدلاء وأحواض الغسيل والصناديق التي وجدوها في الفناء.

فتَّشَ الروس كل أرجاء القلعة، تفتيشاً دقيقاً؛ فتشوا الحديقة، والحجرات والأسقف، فتشوا في كل مكان بحثاً عن جسد أي واحد من إخوتي الشهداء، لكن ذهب بحثهم سدى، فالله العلي العظيم الذي سخَّر النحل لحماية أولئك الذين استشهدوا في سبيله في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، هو الذي أعمى أعين الكفار عن أجساد إخوتي، الذين استشهدوا في سبيله، حتى لا يتفاخر الكفار بأفعالهم، ولا يسخروا أو يُمثلوا بأجساد الشهداء.

لم يتمكن المجاهدون من نزول الجبل ونجدتنا، إلا مع حلول الليل. جاؤوا إلينا تسبقهم طلقات أسلحتهم. وما أن سمعها الروس حتى سارعوا بركوب دباباتهم مذعورين، ولاذوا بالفرار وهم يطلقون النار على القلعة.

أثناء ذلك كان الروس قد رجعوا إلى الفلاح الذي أمسكوا به من قبل، وسألوه:

- أما زلتَ مُصرّاً أن ليس في هذه القلعة أعداء.

فأجابهم الفلاح البطل، مجاهد الإسلام:

- أيها الكافر الأبله. الذين في القلعة، أصدقاء وليسوا أعداء. قد يكونون أعداءك أنت، لكنهم بالنسبة لي أصدقاء.

فأطلقوا عليه الرصاص، ثم قفزوا إلى دباباتهم، وذهبوا، ولم ينسوا قبل رحيلهم أن يضرموا النار في قلعتنا. فتطايرت أجزاؤها في الهواء، بسبب انفجار الألغام التي زرعوها فيها. تطايرت الأَسرَّةُ... والفرش... جثث الحيوانات... الأرض... الأحجار... كل شيء تطاير في الهواء، وأصبح تراباً. كنت أبكي أنا وعزيزة، ونسأل صاحب البيت الذي نختبئ فيه:

- نستحلفك بالله، ما هذه الانفجارات؟ ما الذي يجري بالخارج؟

فأجاب بصوت باكٍ:

- اصبرا، عليكما بالصبر، اصبرا الآن. فقد حلَّ المساء، وبمجرد أن ينصرف الروس سنذهب ونرى ونفهم ما جرى.

ثم غشى السكون المكان كله. وكأن الدنيا قد ماتت. سكون تام، لا صوت انفجار ألغام، ولا صوت سلاح. امتلأ قلبي وأعماقي بإحساس أعجز عن وصفه. ولم يبق في قوس الصبر منزع. فقلت لصاحبة البيت:

- لا بد أن الروس قد غادروا القرية. أنصتي، لقد انقطعت كل الأصوات.

لقد ذهبوا بإذن الله. سأخرج، أستودعك الله يا خالة.

خرجنا أنا وعزيزة، وكاملة ذات الأربعين يوماً، ولم يُمانع صاحب البيت في خروجنا؛ وإن لم أستطع أن أُدرك سبب بكائه ونحيبه. خرجتُ من قلعة جارنا وأنا منفعلة، وخرج معنا صاحب البيت وأقاربه... يا إلهي،... يا أعظم من كل عظيم، لقد زال كل أثر لقلعتنا، ولم يبق مكانها إلا دخان.

أخذت أجري مثل المجنونة، أصيح وأنادي إخوتي. كنت لا أختلف عمن جُنَّ عقله. أجري في كل اتجاه، أبحث عنهم... كل الناس خرجوا من بيوتهم، وأتوا إلى مكان قلعتنا، الجميع يبكي ويتفجَّع. كنت أمسك بكل امرأة أقابلها، وأهزُّها وأصيح أسألها:

- تكلمي... ماذا حدث؟ ماذا أصاب منزلنا؟ من فعل هذا؟ !.

والنساء يبكين، ويرددن كلاماً... لم أسمع شيئاً مما قُلنَهُ. كنت أبكي وأنادي:

- أمي، أمي، ماذا حدث؟ إخوتي، ماذا حدث؟

أمسَكَتْ بي إحدى النساء وأَخَذَتْ تهزني لأسْترد نفسي، وهي تقول:

- أفيقي يا ابنتي، ها نحن ذا كلنا نبحث عنهم. لقد نسف الروس القلعة بالديناميت. اذكري الله، عليك بالدعاء.

كنت أبكي وأُرددُ بيني وبين نفسي:

- هل نسفتهم الألغام، لا، لا يمكن، لايمكن أن يحدث هذا، يا إلهي.

وعندما تمالكتُ نفسي، أخذت أبكي وأصيح وسط النساء قائلة:

- لعلهم اختبؤوا في البيت. أليسَ كذلك؟! لابد أنهم في مخبئهم وراء الحائط! أمي... شهيد... وحيد... وارد، يا إلهي، ألهمني الصبر، ساعَدَتني النساء أيضاً، إنهن لا يعرفن حقيقة ما حدث. فقد كن مختبئات في منازلهن. لكن الرجال كلهم رأوا القلعة وهي تنسف بالديناميت. كل النساء، وكل المجاهدين، حملوا الفؤوس والمجاريف وبدؤوا في رفع الأنقاض بحثاً عن إخوتي تحت الحطام. وجلستُ أنا فوق كومة، وقد عقدتُ ذراعَيَّ. كنتُ أرى زوجة أخي من حين لآخر، وهي تجري باكية، تجري وتهرول في كل اتجاه. واستمر رفع الأنقاض حتى منتصف الليل. كان المجاهدون والنساء والأطفال، كلهم يعملون وقد فقدوا الإحساس بالتعب، وبعضهم يردد فيما بينهم:

- ربما مزقَت الألغام أجسادهم.

قال أحد الأطفال:

- رأيتُ الروس وهم يجمعون قطع الأشلاء، ويضعونها في الدلاء ثم ينقلونها إلى الدبابات. لقد رأيتهم.

سمعت هذه العبارة. فكدتُ أجن. وانتفضتُ من مكاني وأنا أبكي، وأخذتُ أجري، وأجري إلى بعيد. كنتُ أهرب من سماع أي شيء.

كان الهواء في تلك الليلة عليلاً، والسماء مرصّعة بالنجوم. وأنا أجري بين الأشجار ودموعي لا تنقطع.. تعلقت عيناي بالنور الذي ينبعث من أسفل شجرة التوت الضخمة. أرى أشياء تتحرك ببطء، وتشير إليّ بإشارات كأنها تناديني: تعالي، تعالي. فتقدمت على مهل... يا إلهي، يا ربي، إنهم هُم!... لقد وجدتهم!... كأن النور الذي يفيض من وجوههم قد غشي المكان كله. فأخذت أنادي بكل ما أوتيتُ من قوة، والدموع تُخالط صرخاتي:

- إنهم هُنا... إنهم هُنا، تعالوا! أستحلفكم بالله، تعالوا.

لكنهم كانوا يبحثون بين الأنقاض في مكان بعيد عنّي، فلم يسمعوا صرخاتي، ولم يروني. ثم احتبس صوتي. فلما أدركتُ هذا، انحنيتُ على الأرض، وأدرتُ وجه أحدهم. ورفعت رأسه وقبّلتُ وجهه، قائلة:

- آه، محمد وحيد! إذَنْ أنت يا أخي الحبيب، بورِك استشهادك.

ثم قبَّلته من جبينه. لقد أصابوه في صدره بالضبط. ووضعتُ يدي فوق صدره الذي تدفقت الدماء منه، وأنا أردد:

- أتَرَكتني أنت أيضاً! آه، إنه أمر الله العلي العظيم، لقد أرادك الله، فاذهب يا أخي، يا حبيبي.

ثم احتضنتُه، ورفعتُه من الأرض، بقدرة تفوق قدرة البشر، وكأن هناك من يساعدونني ويرفعونه معي.

كان الجميع ما زالوا مشغولين برفع الأنقاض. فتقدمت ناحيتهم مباشرة، وأنا أحتضن أخي وحيد. لم أذرف دمعة واحدة. ورأتني إحدى السيدات وأنا أتقدم نحوهم، فأطلقَتْ صرخة مدوية. والتفت الجميع ناحية الصرخة، فشاهدوني... نظروا إليّ غير مصدقين. وأطلقَتْ عزيزة صرخة وهي تبكِي وتجري ناحيتي وتقول:

- وحيد... يا أخي الحبيب، وحيد!

وضعتُ جسده فوق الأرض برفق. وجذبتُ نقَّالة حصير مزَّقَتْها الألغام، وأرقدتُ أخي فوقها. الجميع صامتون، ما عدا عزيزة، كانت تبكي بحرقة، والأخريات يشاركنها البكاء، ويرددن عبارات الرثاء.

وقفتُ بجانب جثمان أخي بُرهة، ثم رجعت إلى شجرة التوت التي وجدته عندها، ومعي الآخرون، فقد أدركوا أنني عثرت على مكان إخوتي. كان أخي الثاني يرقد على ظهره. فانحنيت فوقه، ونظرتُ. إنه أخي محمد وارد. أراد أحد المجاهدين أن يحمله، لكني دفعته، وأخذتُ أخي بين ذراعيّ. وجذَبَتْ إحدى النساء نقالة إلى جواره، فأرقدته عليها. كان مصاباً في صدره مثل أخيه وحيد. كان النور يفيض من وجهيهما مثل البدر، فيشعّان نوراً. كان الجميع يتهامسون:

- انظروا، انظروا النور الذي يفيض من وجهيهما.

بدأت مجموعة من المجاهدين في البحث عن أخي محمد شهيد. كان كل واحد منهم يحمل في يده مصباحاً، ويبحثون تحت كل شجرة، وكل عشب، وكل أيكة. رأت عزيزة زوجة أخي، أن المجاهدين لم يعثروا على أخي شهيد، فقالت:

- يا ربّ، يبدو أن الروس أخذوه حياً. أنا ذاهبة يا (كول)، ربما عَثَر أبي عليه، وأَنْقَذه من براثنهم.

ثم انطلقَتْ تجري إلى منزل والدها في القرية المقابلة.

صاحت بعض النساء في أبنائهن ذوي الثانية عشرة والثالثة عشرة من أعمارهم:

- اجروا، اذهبوا معها، لا تتركوا العروس تذهب بمفردها.

انطلق الأطفال كالسهام، وجروا في أعقاب زوجة أخي. قالت الفتاة الشابة ابنة صاحب البيت الذي اختبأنا عنده:

- سأذهب أنا أيضاً معها. ليس من الصواب أن نتركها بمفردها. وذهبَتْ مع الأطفال لتلحق بها.

بدأ صوت الأذان يتردد من بعيد، لقد بزغ الفجر. كان الجميع يبحثون عن أمي وعن محمد شهيد، بغير كلل أو ملل. وأثناء ذلك أقبَلَتْ سيدتان تبكيان وتهرولان ناحية أخويّ. قالت إحداهما، وكانت متقدمة في السن، وهي تبكي وتلف ذراعيها حول عنقي:

- آه يا ابنتي كول، لقد ذهب إخوتك. كما ذهب ابني الوحيد. لقد قتلوه هو أيضاً. آه، لقد وجدناه ملقى على الطريق مربوط اليدين. آه يا ابنتي، ابكي، ابكي.

اتضح أن هاتين السيدتين هما أم الفلاح المجاهد الشهيد وزوجته. وبعد بضع دقائق، أحضر المجاهدون جثمان الفلاح الشهيد، محمولاً فوق أكتافهم، ووضعوه على النقالة بجوار أخويّ. نظرتُ إليه وقلت وأنا أُطلق العنان لنحيبي الذي يملأ حلقي؛ بارك الله شهادتك يا أخي... كانت والدته تقبّل جبين

وحيد تارة، وجبين وارد تارة، وتقبل جبين ابنها، ثم تُجهش بالبكاء.

ملأ النور المكان. الناس يتوافدون من كل حدب وصوب. ثم نهضّتُ من مكاني، ومشيت ثانيةً ناحية المروج والحقول. كنت أشعر وكأن أحداً يمسك بيدي ويقودني إلى تلك الناحية. وفجأة تناهى إلى سمعي صوت بعض المجاهدين يقول:

- يبدو أن محمد شهيد ما زال على قيد الحياة. لقد رآه البعض يقفز سالماً من فوق السطح.

وكأن أشياء تعتمل بداخلي، فحدثت نفسي:

- آه، إن شاء الله، إن شاء الله يكون على قيد الحياة.

كنت أجري في كل اتجاه، وأصرخ:

أخي، أخي، أخي محمد شهيد.

أصيح لعلي أسمع جواباً. كنت أبحث في كل مكان، الشمس متوهجة... لقد تعبت. وإذا بي قد وصلت إلى حقولنا. فجلست فوق الصخرة التي أسفل شجرة التين، ووضعت رأسي بين يدي. وأنا أبكي وأنتحب.

كنت آتي إلى هذا المكان في طفولتي، حتى بلغت السابعة أو الثامنة من عمري. مضى زمن بعيد على هذا، لم يتغير

شيء. فكل شيء كما كان في ذلك الزمان... كنت آتي مراراً مع أخي شهيد. ونظرت إلى النهر الذي يجري ماؤه متدفقاً من المجرى أسفل الحقل. كم لعبت هنا مع إخوتي ونحن صغار. كنا أحياناً نحفر قناة لتوصيل الماء إلى الحقل. ونظل نلعب هناك لساعات طوال، نرش بعضنا بعضاً بالماء ونجري.

كان يوجد عند حافة النهر مكان يُشبه الغار، يصل إليه الماء نَزراً. وعندما كنت ألعب مع إخوتي في فصل الصيف، كان شهيد يختبئ داخل هذا الغار، ويرقد داخل الماء. ولأن الغار مظلم، لم يكن أحد يفطن إلى وجوده داخل الغار، فإذا دخل أحدهم للبحث عنه، لم يكن يفطن إليه.

تعلّقت نظراتي بذلك الغار. وكأن الغار أيضاً يتطلّع إليّ. كانت مجموعات المجاهدين يفتّشون في الحقول الأخرى. نهضت من مكاني بحركة لا إرادية، وجريت ناحية الغار. أنا فقط كنت أعرف هذا المكان الذي كان شهيد يختبئ فيه عندما كنا أطفالاً. فقد أخبرني به، أنا فقط. بل إنه عندما كان يغضب في المنزل، كان يأتي إلى هنا. ووصلت عند الغار، ونظرت بداخله... ليس بداخله أحد. فنظرت داخل الماء، ورأيت بحيرة من الدم تعلو صفحة الماء الساكن. كان العرق يتصبب مني بارداً كالثلج. وأنا أرتعش. انحنيت،... وأزحتُ

الماء بيدي، فظهر أخي بوجهه الأبيض، ولحيته السوداء... كان ممدداً داخل الماء، والابتسامة تعلو وجهه.. لقد وجدته. كان يضحك مثلما يضحك عندما كنا نعثر عليه في مخبئه ونحن صغار. كانت الكلاشينكوف التي وضعها بنفسه في حضنه، ما زالت كما هي. تأمَّلْتُه للحظة، وأنا أبكي وهو مضرَّجٌ في هذه الدماء الحمراء، ثم انطلقتُ من الغار أجري وأنادي النساء والمجاهدين المستمرين في البحث هناك:

- محمد شهيد هنا... تعالوا، لقد وجدته.

استدار الرجل على عقبيه، ورجع مثل الصاعقة، يا إلهي... إنه أبي. جريت نحوه، وجرى ناحيتي، وعانقته وأنا أردد:

- أبي... أبي، أين كنت. لقد رحلوا بدون وداعك. لقد تركونا، أبي... شهيد هنا، إنه يرقد هناك... وسط الماء.

مسح أبي دموعه، ونظر إلى الغار. أخرج المجاهدون أخي من قلب الماء، وأرقدوه فوق التراب. ووقف أبي فوق رأس أخي وهو يقول:

- كفى يا ابنتي، لقد ودَّعتُ ابني منذ زمن بعيد. فهذا هو طريقنا جميعاً. الحمد لله. الحمد لله على أنهم استشهدوا في سبيل الله. بوركت شهادتهم لي... ولك... ولنا جميعاً.

ثم تقدم قليلاً، وسجد سجدة شكر لله، وسط نظرات الدهشة التي ارتسمت على كل الوجوه من حوله. ثم انحنى وجفف بيده شعر أخي المبلل، ونظف لحيته مما علق بها من رمال، وقبَّله في جبينه، وتكلم طويلاً فوق رأس أخي والدمع ينهمر من عينيه:

- بورِكَتْ شهادتك يا ولَدي، فأنا راضٍ عنك، وليرض الله عنك. وإن شاء الله تكون ممن يسعدون بصحبة رسول الله ﷺ، ولتكن الجنة مثواك... لك الحمد يا ربّ، نبتهل إلى الله أن يتقبل جهادنا.

أخذ أحد المجاهدين، السلاح من أخي، ثم استدار وأجهش بالبكاء. لفّوا أخي بغطاء، وحملوه فوق أكتافهم، ونقلوه إلى جانب بقية الشهداء.

أثناء ذلك أقبلت زوجة أخي وأبواها، وأخوها، كلهم ألوانهم ذابلة، وأنفاسهم متقطعة من الجري، أقدامهم حافية. وجالت ببصرها ناحية الشهداء. وما أن وقع بصرها على أخي، حتى اندفعت ناحيته، ووقفت عند طرف رأسه تبكي. كأن كل شيء كان يبكي في ذلك اليوم: الأحجار، والأشجار، والطيور المُحلِّقة في الهواء، والأرض، والسماء، كل شيء يبكي وأنا وسط هذا البكاء، أبكي وأسأل:

- أبي، أين أمي، أين أمي. لم نجدها... تُرى ماذا جرى لأمي؟

أجاب أبي:

- اهدئي يا ابنتي. أمك على قيد الحياة. لقد أصابوها في يدها، وعثر عليها البعض بجوار جدول الماء، وسيأتون بها بعد أن تتمالك نفسها.

فحمَدت الله كثيراً.

كان إخوتي الأربعة الآخرون، يقفون بجوار إخوتهم الشهداء، يذرفون الدمع. وبعد بضع ساعات قال أحد المجاهدين:

- أرى أن نحمل الشهداء إلى فناء بيت في هذه الساحة، سيكون هذا أفضل.

كان لنا بيت قديم بجوار بيت عمتي. كان ذلك البيت ملكاً لأبي، أعطاه له جدي وهو على قيد الحياة وكنا نعيش فيه أيام طفولتنا، قبل أن نبني قلعتنا. وعندما اكتمل بناء بيتنا الجديد، انتقلنا إليه، وابتعدنا عن جيرة عمتي، وبالتالي أصبح ذلك البيت القديم مهجوراً. فطلب أبي من المجاهدين أن يحملوا الشهداء إلى ذلك البيت.

بدأ الناس يتوافدون علينا في ذلك البيت. فدخلتُ مع النساء إلى حجرات البيت الخالية، بعضهن أحضرن طعاماً، وفراشاً، وبُسُطاً، وحصيراً من بيوتهن، وعملن كل ما يلزم لنا، وفجأة التفتُّ على صوت يقول:

- أأنتِ يا ابنة مريد؟ لماذا جئتم إلى هنا. لقد دمرتم قلعتكم. والآن، هل سيأتي الدور على بيوتنا لتدمروها؟ ألا تنطقين؟

هربت الدماء من كل جسمي. وبدأت أرتعش. ونهضت امرأة عجوز من مكانها تحدثها:

- التفتي إليّ أيتها المرأة السيئة، إنه يومك أنت أيتها الشيوعية القذرة.

ثم غادرت الغرفة. كان صوتها يأتي من خارج الفناء وهي تقص على المجاهدين ما جرى. فدخل أحدهم، وطرح تلك المرأة الشيوعية أرضاً، وجذبها من شعرها، فصرخت وشاركتها بناتها الصراخ، وتهيأ مجاهد آخر بسلاحه قائلاً:

- ماذا تقول هذه؟ إن قتلها فريضة علينا لتخليص الدنيا من أحد جراثيمها.

هاج الجميع وماجوا، وكادت المرأة أن تمزق إرباً. كانت

ترتعش من الخوف، وقد انزوت في ركن وهي ترمق المجاهدين بنظراتها الخائفة. فاندفع أبي من وسط الحشد وحال بينهم وبين أخته قائلاً:

- كفوا أيديكم، لا تضربوها، لا تظنوا أنني أحميها لأنها أختي. كلا، فلا يجوز أن يكون الكافر المشرك المنافق، أخاً للمسلمين.

لكنكم إن قتلتموها الآن، سيقول الشيوعيون للناس:

انظروا، إنهم ينتقمون من العجائز، ثم ما جدوى قتلها إننا نَعرف جيداً على من نطلق رصاصاتنا... ثم التفت إلى أخته قائلاً...

- أعرف أنك أبلغت أبناءك بمكان أبنائي... وأعرف أيضاً أن ذلك البرشمي المقنع الذي جاء مع الروس، هو ابنك... لقد ربيتُ أبنائي ليوم كهذا، وأحمد الله أن تحققت أمنيتي... لكن أنت... أنت أتعس امرأة في الدنيا... لقد دعوت الله كثيراً أن يهديك... لكن الله لم يكتب لك الهداية... إنني أعرف لماذا أنت متمسكة بالبقاء هنا، على أمل أن يتولى البرشميون زمام الأمور مرة أخرى، وعندئذ يستحوذون على كل شيء أليس كذلك؟؟ لقد أعماك متاع الدنيا، تفضلين أن تُضَحي بأولادي، عن الرحيل من هنا. إذا كنت تظنين

أن كل شيء قد انتهى باستشهاد ابني شهيد فأنت مخطئة، فهؤلاء جميعاً، كل واحد منهم شهيد، وكل واحد منهم وحيد وفريد. والآن، اغربي عن وجهي، واذهبي إلى جهنم مأواكِ أنتِ وأبناؤك.

عقب هذا انصرفتْ هي وبناتها من البيت.

* * *

مضى أسبوعان بعد هذا، ونحن نُعَوّد أنفسنا على الحياة الجديدة. فقد شُلَّت يدُ أمي اليسرى، ولم يبق لنا شيء أبداً. الجميع يسارعون لتقديم المساعدة لنا. فهذا يأتي لنا بوعاء، وهذا يأتي بقماش، وهذا بلحاف... بينما محمد مزيد في الجبهة لا يعلم شيئاً عما حدث لإخوتي. وفي اليوم الذي غادرَت فيه أمي المستشفى الذي نقلت إليه بعد إصابتها، كان أول سؤال لها فور عودتها إلى البيت.

- أين أبنائي؟ إنهم بخير... أليس كذلك؟!

واحترنا لسؤالها. ذلك لأن النساء - أثناء دفن إخوتي - أمسكن بيد أمي، وأتين بها فوق رؤوس أبنائها، لتُلقي عليهم النظرة الأخيرة. لكنها من شدة الألم. لم تَعِ شيئاً من هذا. كان عقلها تائهاً في تلك اللحظة... وها هي الآن تسأل عنهم. وبعد بضعة أيام، اصطحبتُها أنا وزوجة أخي

إلى مقابرهم، إلى مكان قلعتنا التي نسفتها الألغام، والتي استشهدوا عندها. كانت تبكي، وتسأل في ذهول:

- أفصحوا، لمن هذه القبور،... أهي قبور أبنائي؟!!

علم الجميع بأمر استشهاد إخوتي. كان البرشميون، يطبِّلون ويزمِّرون تعبيراً عن سعادتهم. وألصقوا البيانات في كل مكان لتعلن وفاة إخوتي. وتوافد على القرية قادة الجبهات الأخرى، والإخوة، والمجاهدون من المدن الأخرى، للتعزية. كما علم المجاهدون في الجبهة التي يجاهد فيها أخي مزيد، بأمر استشهاد إخوتي، لكنهم كتموا الأمر عنه... قال القائد لمزيد:

- يمكنك الآن أن تذهب إلى البيت، فهناك أمور ستبحثها مع أخيك وسنسافر غداً جماعة. فأنا أريد مجموعة من المجاهدين من النوع الذي تعرفه. كما أن لديَّ أعمالاً أخرى... سنسافر غداً إن شاء الله، في الصباح الباكر... كن مستعداً لهذا.

فقال أخي مزيد:

اذهبوا أنتم، وسأظل أنا هنا.

لكن القائد ثناه عن رأيه وأقنعه بمرافقتهم.

أثناء الطريق، قابلهم أحد المجاهدين من جبهتنا، فأبلغ مزيداً:

- إن أهل بيتكم، انتقلوا إلى البيت القديم، فالمكان هناك أكثر أماناً.

فجاء أخي المجاهد مع إخوانه، إلى البيت القديم مباشرة. وعند دخوله فناء البيت، قابل زوجة أخي التي سارعت بدخول الغرفة، بدون أن تسلّم عليه، حتى لا يغلبها البكاء. وكنت أجلس بجوار الحائط، فنهضتُ وقابلته وأخذتُ منه سلاحه. فقال أخي:

- معي القائد والمجاهدون، أعدّي قليلاً من الطعام. لقد جاؤوا لمقابلة أخي والتحدث معه.

نظرتُ إليه في حيرة، كنت أعتقد أنه علم بما جرى، وتبينت أنني مخطئة. عاد يسأل مرة أخرى يكرّر الأسئلة:

- أين أبي؟ هل هو في الحقل؟ وأين محمد وحيد، أين أخي!

أطرقتُ برأسي وسكتُ. لم يفهم معنى سكوتي. وسأل مرة أخرى:

- تكلمي يا (كول) أين هُم؟ لماذا أنت صامتة؟

ولما لم أُجِبْه. صاح داخل البيت وقال:

- زوجة أخي، زوجة أخي، ماذا هناك، أَفْهِموني،

أستحلفكم بالله؟

وقفت زوجة أخي عند عتبة الباب وقد خفضت رأسها والدموع تنهمر من عينيها.

صاح مزيد في حدة:

- هل ستجننونني؟ أين كاملة، أمي، أمي؟

وأخذ يصيح بكل ما أوتي من قوة.

كانت أمي ترقد مريضة، فأجابته من الداخل وهي تئنّ من وطأة المرض. ولم أعد أحتمل أكثر من هذا، فقلت له:

- اذهب، لا تسألني، اذهب إلى قلعة الرحيم، إنهم ينتظرونك هناك، حيثما كانوا. لقد مضى حوالي شهر على استشهادهم. أراد الله ذلك، فتركونا ومضوا.

كانت عيناه مصوبتين على فمي، وهو غارق في الذهول... ثم انحنى على الأرض، وأجهش في البكاء... لقد عرف الحقيقة تواً... وتلقّى الخبر الأليم.

وبعد بضعة شهور، هاجرنا أنا وإخوتي، وعبرت الحدود مع أمي بعربات الهجرة، بينما جاء محمد مزيد وإخوتي الأربعة الصغار من طريق الجبل.

* * *

لقد استقرت (قمري كول) وإخوتها هنا في معسكر الأرامل، والتحق الإخوة الصغار بمدرسة أبي حنيفة، أما قمري كول، فأيامها تمر في رتابة. وعندما اشتد المرض على أمها، رجعت إلى أرض الوطن أفغانستان. وإلى أن تتحسن صحتها، تتولى زوجة أخيها إعداد الطعام للصغيرة اليتيمة كاملة ولوالدها، اللذين أصبحا في هذه الحالة كالمجاهدين. يقولون إنهم اشتاقوا كثيراً إلى الصغيرة كاملة. وترسل زوجة أخيهم خطابات مع كل قادم تقول فيها:

- ادعوا الله أن تتحسن أمي، سنعود إن شاء الله، أتمت كاملة سنة ونصف السنة من عمرها. وهي تشبه والدها تماماً، فهي جميلة عيونها زرقاء، ووجهها أبيض مثل الثلج، وشفتاها قرمزيتان. كانت أول كلمة نطقت بها، هي الله، الله. والآن كلهم يرتاحون إلى كلماتها هذه، غير محزونين لأنها تُربى لتكون مجاهدة... بل على العكس فإنهم متفائلون، ومؤمنون وسعداء، ويرددون:

- ستتحرر أفغانستان. وعندئذ سننتشر نحن الصغار في كل أنحاء الدنيا، ونسارع للجهاد، ونكافح، إلى أن يرتفع لواء الإسلام خفاقاً فوق الدنيا كلها. الحق معنا، والنصر قريب بإذن الله.

تمت بحمد الله وتوفيقه

* * *

الروائية والرواية

ولدت الروائية الأفغانية مرال معروف في كابل العاصمة عام ١٩٦٠م، وأمضت فترة صباها في أنقرة، وتعلمت اللغة التركية إلى جانب اللغتين الفارسية والباشتو. كانت مرال معروف في التاسعة عشرة من عمرها عندما احتل الروس أفغانستان عام ١٩٧٩م، وكانت تجربة الاحتلال والشيوعية سبباً في هجرة جماعات كثيرة من الأفغان إلى بيشاور في باكستان. وكانت النساء والفتيات والمسنون الأغلبية بين هؤلاء المهاجرين، ذلك أن الرجال القادرين على حمل السلاح ظلوا في أفغانستان لمقاومة الروس والشيوعيين.

هاجرت مرال معروف من أفغانستان مع من هاجر من النساء والشيوخ والأطفال، وسجلَت تجربة الهجرة وما اكتنفها من صعاب، حيث الجبال الوعرة، والبرد القارس، والخوف والاضطراب، في رسائل كتبتها باللغة التركية، نشرتها مجلة (ماورا) التركية وكانت هذه الرسائل مادة روايتها (الهجرة من أفغانستان) وقد ترجمها الدكتور محمد حرب إلى اللغة العربية سنة ١٩٨٦م.

تقول مرال معروف إنني لست بكاتبة، لكنني حاولت أن

أُسمع صوت شعبي الأفغاني إلى الآخرين، ليعرفوا حقيقة ما نعيشه في أفغانستان. كان قلمي هو وسيلتي للدفاع عن بلادي ضد الروس. وحققت الروايتان شهرتهما الكبيرة عند نشرهما باللغة التركية ولفتتا الانتباه إلى مرال معروف التي كانت لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين من عمرها، وذلك بسبب صدق التعبير وبساطة الأسلوب وتدفق الشعور الذي كتبت بها روايتيها.

وتصور رواية معسكر الأرامل أحوال زوجات المجاهدين الأفغان وأحوال أمهاتهم وأطفالهم داخل معسكرات المهجر، كما تسجل مرال معروف ما رأته وسمعته من حكايات عن الجهاد على لسان الأفغانيات داخل هذا المعسكر المخصص للنساء.

الرواية تقدم أيضاً صورة واقعية للمرأة الأفغانية وصلابتها وتجلدها وقوة احتمالها وإقبالها على التضحية بصبر ورضا في سبيل إنقاذ دينها ووطنها من المحتلين.

الدكتورة ماجدة مخلوف

* * *

المترجمة في سطور

اسم المترجمة: ماجدة صلاح مخلوف.

اسم الشهرة: ماجدة مخلوف.

مكان وتاريخ الولادة: القاهرة ١٩٥٣/١/٣١م.

المؤهلات العلمية:

- درجة الليسانس في اللغات الشرقية عام ١٩٧٣م.
- درجة الماجستير في اللغات الشرقية - اللغة التركية عام ١٩٧٨م.
- درجة الدكتوراة في اللغات الشرقية - التاريخ العثماني عام ١٩٨٣م.

الخبرات العملية:

- أستاذ بقسم اللغات الشرقية وآدابها - كلية الآداب - جامعة عين شمس.
- أستاذ بقسم التاريخ - كلية البنات - الدمام - السعودية (١٩٨٤-١٩٨٧م)
- نائب رئيس مركز بحوث العالم التركي - القاهرة.

العمل الحالي:

- أستاذ الدراسات التركية - قسم اللغات الشرقية - كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة - مصر.

المؤلفات:

- الحريم في القصر العثماني - القاهرة - ١٩٩٨م - دار الآفاق العربية.
- تأثير فن المقامة العربية في أدب الأتراك - القاهرة ١٩٩٠م (المؤلف).
- الاتحاد والترقي في الأدبين العربي والتركي - القاهرة ١٩٩١م (المؤلف).
- مخطوط خلاص الأمة في معرفة الأئمة ٠ تحقيق وتقديم وتعليق - القاهرة ٢٠٠٢م، دار الآفاق.
- الخلافة في خطاب أتاتورك - ترجمة وتقديم وتعليق، القاهرة ٢٠٠٢م، دار الآفاق العربية.
- الجوانب الإنسانية والأدبية لدى بابرشاه، القاهرة ٢٠٠٢م، (المؤلف).
- تاريخ بابرشاه، وقائع فرغانة، القاهرة ٢٠٠٢م، دار الآفاق العربية.

- معروضات أحمد جودت باشا، دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية، ١٩٨٣م، القاهرة (لم تنشر).
- رواية معسكر الأرامل - ترجمة من التركية - دار الشروق ٢٠٠٢م، القاهرة.

العنوان البريدي:

٧ شارع مظهر عاشور - النزهة الجديدة - القاهرة - مصر،

الهاتف: ٠١٢٢٣٥٤٨٧٤٤/٠١٤٠ ٢٩٤٠/ فاكس: ٢٩٤٠١٤٠

* * *



الفهرس

الموضوع

معسكر الأرامل.. ٥

أرملة الشهيد عماد الدين.................................. ١٦

حكاية الجدة العجوز...................................... ٣٦

قصة الفتى.. ٧٢

ضيوف غير متوقعين...................................... ٩٩

بدء الجهاد.. ١١١

هروب محمد شهيد.. ١٤٢

حكاية قمري كول.. ١٤٩

والدة محمد شهيد تكمل الحكاية.................... ١٧٠

قمري كول تكمل الحكاية............................... ١٧٦

الروائية والرواية.. ١٩٧

المترجمة في سطور....................................... ١٩٩

منشورات

رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان (رياحين الجنة)؛ عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، إعداد د. عبد الباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان البوسنة والهرسك - مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى (رواية)، جهاد الرجبي (فازت بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية).

٨- ديوان (يا إلهي)، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية (مجموعة قصصية)، د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان (مدائن الفجر)، د. صابر عبد الدايم.

١١- العائدة (رواية)، سلام أحمد إدريسو (فازت بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية).

١٢- (محكمة الأبرياء) مسرحية شعرية، د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري، د. جابر قميحة.

١٥- في ظلال الرضا، شعر أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة بنت سويد الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة: بحوث ودراسات.

٢٠- معسكر الأرامل - للروائية الأفغانية مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، دراسة أدبية، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص قصيرة من الأدب الإسلامي (الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى).

* * *

سلسلة أدب الأطفال:

١- غرد يا شبل الإسلام (شعر)، محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي، أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل (شعر)، يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور، د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي (شعر).. أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب (قصص) فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين (قصص)، للكاتب التركي علي نار، ترجمة شمس الدين درمش.

* * *

تطلب من مكاتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

١ - مكتب المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص. ب ٥٥٤٤٦ هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ - ٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

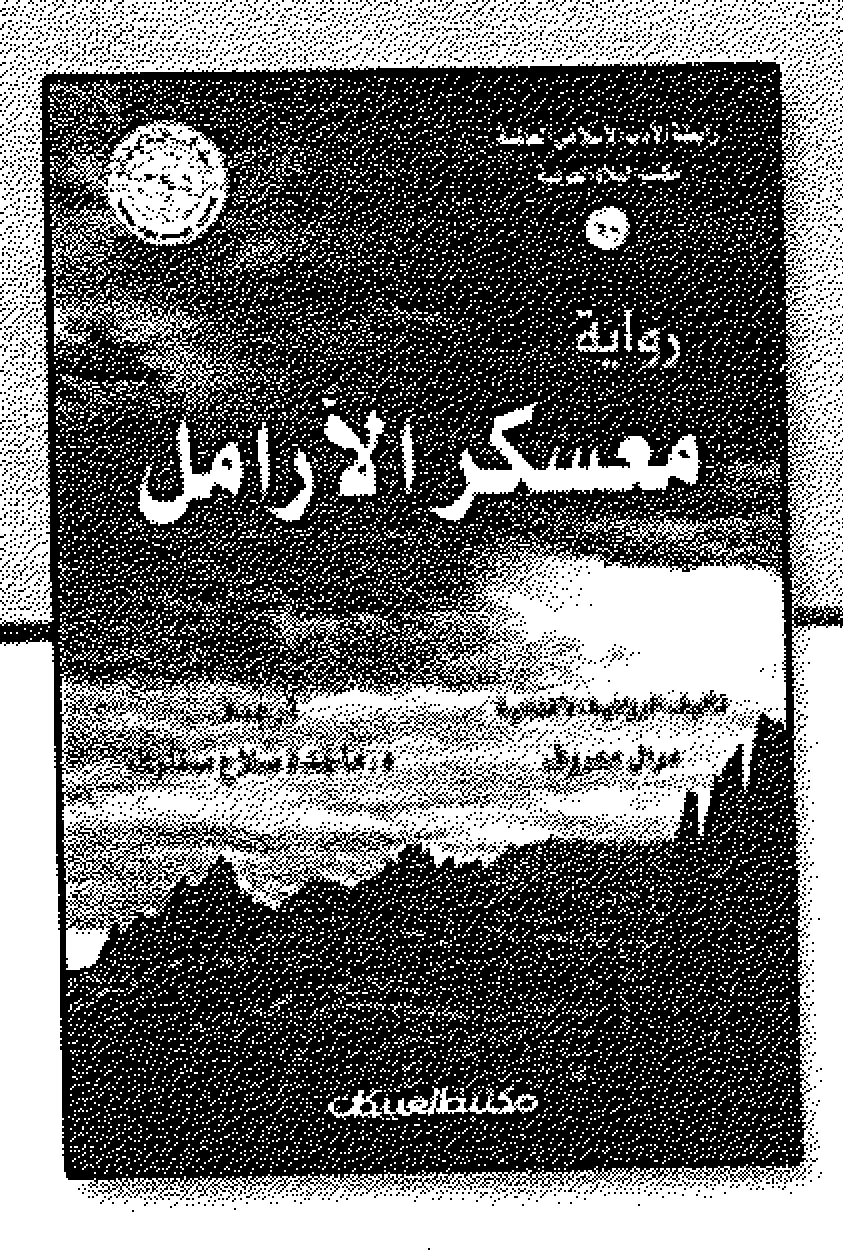
٢- مكتب الأردن: عمان ١١١٩٢ - ص. ب ٩٢٣٠٨٤ - هاتف / فاكس: ٥٦٢٠٩٣٥

٣- مكتب مصر: ص. ب ٩٦ - رمسيس القاهرة - هاتف: ٣٨٢١٦٢٤ - ٥٧٥٠٨٣٠

٤- مكتب المغرب: ص. ب ٢٣٨ وجدة ٦٠٠٠١ - هاتف/فاكس: ٥٠١٩٢٥

* * *


العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging



المترجمة في سطور

- الاسم: ماجدة صلاح مخلوف.
- ولدت في القاهرة ١٩٥٣م.
- المؤهلات العلمية:

- درجة الليسانس في اللغات الشرقية عام ١٩٧٣م.
- درجة الماجستير في اللغات الشرقية - اللغة التركية عام ١٩٧٨م.
- درجة الدكتوراه في اللغات الشرقية - التاريخ العثماني عام ١٩٨٣م.

- الخبرات العملية:

- أستاذ بقسم اللغات الشرقية وآدابها - كلية الآداب - جامعة عين شمس.
- أستاذ بقسم التاريخ - كلية البنات - الدمام - السعودية (١٩٨٧ - ١٩٨٤م).
- نائب رئيس مركز بحوث العالم التركي - القاهرة.

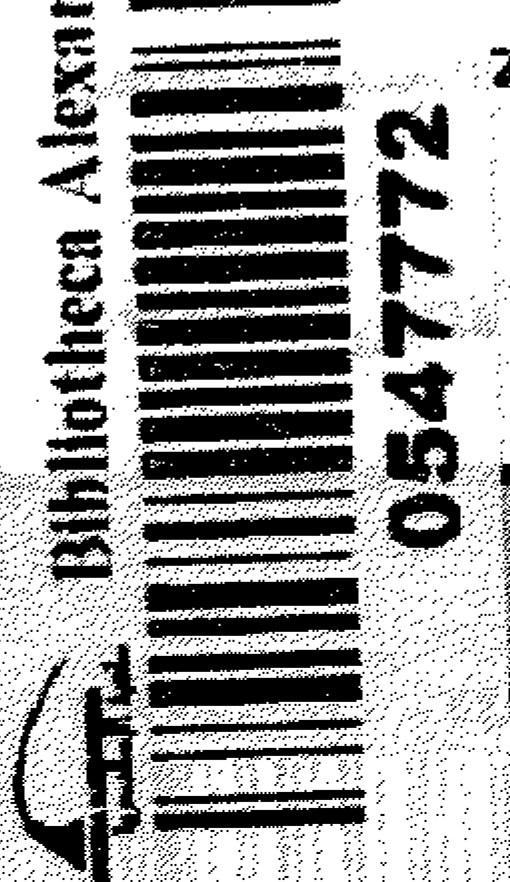
- العمل الحالي:

- أستاذ الدراسات التركية - قسم اللغات الشرقية- كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة - مصر.

- المؤلفات:

- الحريم في القصر العثماني - القاهرة - ١٩٩٨م
- دار الآفاق العربية.
- تأثير فن المقامة العربية في أدب الأتراك - القاهرة ١٩٩٠م (المؤلف).
- الاتحاد والترقي في الأدبين العربي والتركي- القاهرة ١٩٩١م (المؤلف).
- مخطوط خلاص الأمة في معرفة الأئمة. تحقيق وتقديم وتعليق- القاهرة ٢٠٠٢م، دار الآفاق.
- الخلافة في خطاب أتاتورك - ترجمة وتقديم وتعليق، القاهرة ٢٠٠٢م دار الآفاق العربية.
- الجوانب الإنسانية والأدبية لدى بابرشاه، القاهرة ٢٠٠٢م، (المؤلف).
- تاريخ بابرشاه، وقائع فرغانة، القاهرة ٢٠٠٢م، دار الآفاق العربية.
- معروضات أحمد جودت باشا، دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية، ١٩٨٣م، القاهرة (لم تنشر).
- رواية معسكر الأرامل - ترجمة من التركية - دار الشروق ٢٠٠٢م، القاهرة.

العنوان البريدي:
٧ شارع مظهر عاشور - النزهة
مصر، الهاتف:
٠١٢٣٥٤٨٧٤٤ / ٢٩٤٠١٤٠ /



ردمك: ٩- ... ٧
العبيكان Obeikan